

الْإِقْطَاعُ

وأوربا في العصور الوسطى

تأليف

دكتور احمد ابراهيم الشعراوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية البنات — جامعة عين شمس

القاهرة ١٩٧٠

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش. مزرع سعد القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الطاوى الجوينى

الاسكندرية

الْأَقْطَالُ

وأوروبا في العصور الوسطى

تأليف

دكتور أحمد إبراهيم الشعراوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية البنات — جامعة عين شمس

القاهرة ١٩٧٠

مقدمة

بدأ عصر الإقطاع بأوربا مع بداية تفكك وانهيار الإمبراطورية الكارولنجية عقب وفاة شارلمان ثم ابنه لويس التقي ، إذ استقل كل فيل أو كونت أو ماركيز أو بارون . . . الخ بما تحت يده من أراضى واعتبرها ملكا خالصا له يتصرف فيه دون الرجوع للسلطة المركزية في العاصمة الإمبراطورية .

ومن ناحية أخرى فإن الناس الذين كانوا يعيشون داخل هذه الأراضى وجدوا أنفسهم في حاجة إلى أن يتركزوا أو يلتفوا حول شخص أو سلطة عليا تقدم لهم الحماية حتى يستطيعوا أن يزاووا حياتهم اليومية وأعمالهم وهم آمنين على أنفسهم ، وهكذا تضافر هذان العاملان — افتقار الناس إلى الحماية وتطلع السيد أو الحاكم المحلي إلى الاستقلال — وبدأ عصر الإقطاع الذى تمثل في تقديم الخدمات للحاكم من جانب الشعب في نظير أن يقدم لهم الحاكم الحماية .

فالإقطاع أو النظام الإقطاعى إذن هو نظام سياسى واجتماعى واقتصادى أوجدته الحاجة وفرضته الظروف في غرب أوربا ، وكان هذا النظام يناسب وحاجات الناس في تلك العصور .

وكان لا بد لهذا النظام لكي يسير في طريق سوى من وجود قانون يحدد وينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وقد وجد هذا القانون بالفعل في صورة عرف وعادات وتقاليذ العصور الوسطى التى تحمكت إلى أقصى حد في هذا النظام وفي حياة الناس .

ولكن هل وجد هذا النظام طفرة واحدة ؟

الواقع أن هذا النظام لم يوجد فجأة وإنما يرجع إلى أصول وجذور تاريخية بعيدة وتمثل هذه الأصول في :

١ - الأصول الرومانية : وهي مجموعة القوانين والعادات والعرف والتقاليد التي كانت تسير دفة الحياة في الإمبراطورية الرومانية القديمة .

٢ - الأصول الجرمانية : وهي نفس الشيء مأخوذاً عن القبائل الجرمانية المختلفة التي أقامت داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية ، وكانت أحد أسباب انهيارها . وبمرور الوقت اتحدت الأصول الرومانية والجرمانية لتخرجاً لنا نظاماً وقانوناً موحداً ألا وهو النظام والقانون الإقطاعي الوسيط الذي ازدهر نتيجة حاجة الناس إلى مثل هذا النظام والذي كان يناسب وحياتهم واحتياجاتهم وطرق معيشتهم في تلك العصور .

والنظام الإقطاعي جوانب ثلاث رئيسية بحكم كونه المهيمن على حياة الناس في أوروبا في العصور الوسطى :

١ - جانب سياسي : ويتمثل في الطريقة التي كان يسير بها هذا النظام ، والعلاقة التي تربط بين كل من السيد والتابع ، وحقوق وواجبات كل منهما إزاء الآخر . ولا ننسى في هذا الصدد ما يعرف باسم « السلم الإقطاعي » وهي رابطة التسلسل في الطبقات الاجتماعية المختلفة داخل هذا النظام من أعلاها ، أي من الملك أو الإمبراطور ، إلى أدناها أي إلى طبقة الأقنان .

٢ - جانب اجتماعي : ويتمثل في كل ما يتصل بالحياة الاجتماعية في أوروبا في تلك العصور وعلى رأسها « نظام الفروسية » ، هذا النظام الذي بدأ حريياً أولاً ثم تطور ليوجد ما عرف باسم « الفروسية الاجتماعية » ، والتي ينضوى تحتها كل ما يتصل بإيمان الفارس وقانون الفروسية ومستوى الحياة ومركز المرأة في هذه الحياة وما يتصل بها من شعر الغزل وملاحم المآثر وشعراء التروبادور بصفة عامة مما أوجد نشاطاً ثقافياً واجتماعياً ضخماً كان له أثر سياسي واقتصادي على الحياة في أوروبا في تلك العصور .

٣ - جانب اقتصادي : ويتعلق بالجانبين السابقين وما يتفرع منهما مثل نظام الضياع والعرب والسكفور والقرى ثم تطور التعامل الاقتصادي من

التبادل إلى نظام النقد وما أدى إليه من وجود المدن وبالتالي إلى نهضة ثقافية شاملة قامت بها داخل تلك المدن الكاتدرائيات التي تطورت إلى الجامعات فيما بعد .

من هذا كله ، بالإضافة إلى اهتمامنا بالناحية السياسية في الموضوع وتطورها يمكننا أن نقسم المراحل التي مر بها النظام الإقطاعي إلى ثلاث مراحل رئيسية :

١ - مرحلة نمو وتطور الاقطاع : وهي مرحلة بدايته ، ويدخل فيها أصول هذا النظام وتعرفه .

٢ - مرحلة ازدهار النظام الإقطاعي : وهي بطبيعة الحال أطول المراحل من حيث الحقبة الزمنية وما مر فيها من أحداث سياسية وبحكم ما وقع فيها أيضاً من تطورات اجتماعية واقتصادية وقضائية ودينية .

ويجب أن نلاحظ أنه في خلال هذه المرحلة بدأت في نفس الوقت تظهر لنا بصورة خفية بعض العوامل التي ستؤدي إلى انهيار هذا النظام فيما بعد .

٣ - مرحلة انهيار النظام الإقطاعي : وهي مرحلة النهاية وسيكون أساسها وسببها المباشر ظهور القوميات الأوربية الحديثة وتفتح أذهان الناس وعقولهم إلى مفاهيم جديدة ستؤدي إلى تغيير نظام حياتهم ، وبالتالي نظام الحكم من أساسه .

والآن وقبل أن نتناول هذا كله في شيء من الإيضاح والتفصيل علينا أن نلقي نظرة فاحصة وشاملة على أحوال أوروبا في تلك العصور ليتسنى لنا تفهم الموضوع من شتى جوانبه .

نظرة عامة

على الأحوال السياسية لأوروبا في العصور الوسطى

تحتل فترة العصور الوسطى حقبة زمنية تزيد عن الألف عام بصفة عامة. وقد أطلق المؤرخون الأوروبيون مصطلح العصور الوسطى على السنوات التي تفصل بين انهيار المدينة الرومانية وبين ما تراهى لهم من فجر مدينة العصر الحديث ، ونظراً لأنهم اهتموا أساساً بتاريخ شمال غربى أوروبا - إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا - فقد اتخذوا تبعاً لذلك التواريخ الفاصلة بين العصور المختلفة .

والمعروف أن العصور الوسطى امتدت منذ خلع روميلوس أجسطولس ، آخر الأباطرة الرومان عن العرش سنة ٤٧٦ ، إلى حوالى سنة ١٥٠٠ م ، إذ اعتبر هؤلاء المؤرخون النهضة الأوربية بدء العصر الحديث ، واعتبروا القرن الرابع عشر بداية لها فى إيطاليا ، وجعلوا انتشارها فى غرب أوروبا فى السنوات السابقة على سنة ١٥٠٠ والسنوات اللاحقة لها فكأن العصور الوسطى بمعناها الأصلى شملت حقبة زمنية بلغت فى شمال غربى أوروبا حوالى ألف سنة بينما جرى تقديرها فى إيطاليا بنحو ٨٥٠ سنة فقط ، وهكذا تختلف هذه الحقبة الزمنية فى تحديدها الدقيق من بلد إلى بلد حسب الظروف التى مرت بها كل منطقة على حدة .

والواقع أن مدينة العصور الوسطى لم تفس من حوض البحر المتوسط إلا إيطاليا وجنوب فرنسا والجزء الشرقى من إسبانيا . وعلى الرغم من الأهمية الاقتصادية والحضارية لهذه الأقاليم فى العصور الوسطى فإنها لم تكن بالغة الأهمية من الناحية السياسية ، ذلك أن مركز القوة والسلطان فى العصور الوسطى إنما وقع فى الشمال فى بيئة شديدة الاختلاف . فالإقليم

الذى يقع شمال الأراضى المنخفضة التى تحف بالبحر المتوسط كاد يغطيه بأسره الغابات الشاسعة ، واشتهر بوفرة المياه اللازمة للرى ، واعتدال المناخ صيفاً والبرودة شتاء وبخصوبة تربته . ولجا السكان فى عصور ما قبل التاريخ إلى أن يزيلوا الغابات فى بعض الجهات لكى يقيموا لأنفسهم قرى ينزلون بها ويتخذوا لهم حقولا ، وبمضى الزمن ازدادت المحلات والمساكن غير أن الغابات لم تختف نهائياً ، إذ أن المناخ الرطب يساعد على سرعة نموها من جديد إذا غادر الناس مواطنهم . والخلاصة أنه وجدت مساحات شاسعة من الأراضى الصالحة للزراعة وإن كانت تحتاج إلى أساليب تختلف عن تلك التى تجرى فى إقليم البحر المتوسط .

وهذه المنطقة من شمال أوروبا تمثل إقليماً شاسعاً يمتد من الشاطئ الغربى لإيرلندا حتى الحدود الحالية للشعوب الصقلية ، ومن بحر الشمال وبحر البلطيق إلى البحر المتوسط . وكان هذا الإقليم حتى القرن الرابع قبل الميلاد خاضعاً للكلتيين الذين ينتمون للجنس الألبى وتعتبر القبيلة هى الوحدة السياسية عندهم ، وعاش الكلتيون على الفلاحة وتربية الماشية .

ثم خضع الكلتيون لعنصر جديد وهم التيوتون أو الجرمان الذين طردوا الكلتيين من منطقة ألمانيا الحالية واحتلوا الإقليم الواقع عدمصب نهر الراين وشرق إنجلترا زمن يوليوس قيصر ، ثم أوقعت الجيوش الرومانية زحفهم جنوباً وغرباً مدة أربعة قرون .

ولما أخذت الإمبراطورية الرومانية فى التدهاى فى القرنين الرابع والخامس شرع الجرمان فى التحرك من جديد فاحتلوا شمال غالة ووادى نهر الرون الأعلى ، والسامون ، ووادى نهر البو (بشمال إيطاليا) فضلاً عن إنجلترا .

وعلى الرغم من أن المغيرين من الجرمان المحاربين حكموا فترات طويلة

في وسط إيطاليا وجنوبها ، وجنوب فرنسا ، وإسبانيا ، وشمال إفريقيا ، فإنهم لم يبلغوا من كثرة العدد ما يؤدي إلى تأثير جوهري في تركيب السكان والنظم السياسية بتلك الأقاليم . على أنه ما كاد ينتهي القرن السادس الميلادي حتى أضحى شمال غربي أوروبا أرضاً جرمانية ، ولم يبق من الحضارة الكلتية إلا آثار ضئيلة في اسكتلندة وويلز وإيرلندة وبريطانيا .

ويتبين من الوضع في غرب أوروبا سنة ٨٠٠ م أن مركز القوة انتقل من إقليم البحر المتوسط إلى الشمال ، وتحول من يد الرومان إلى الجرمان ، إذ تم في تلك السنة توزيع شارلمان في روما على أنه إمبراطور روماني حكم إيطاليا وغالة وشرقاً من شمال إسبانيا ، وحاول أن يحمل الإمبراطور البيزنطي على أن يعترف به إمبراطوراً على العالم الروماني . ومع ذلك فإن شارلمان لم يكن أصلاً إلا ملكاً جرمانياً يحكم دولة جرمانية ، ويقع مركز سلطانه في الأقاليم الواقعة على ضفتي الجزء الأدنى من نهر الراين ، واتخذ مدينة آخن عاصمة له . وأكثر من ذلك أن سلطته في إيطاليا إنما استندت إلى استحواذه على تاج جرمانى ، وفرضه السيادة على شعب جرمانى وهم اللبارديون .

ويقع في خارج إمبراطورية شارلمان مجموعتان هامتان من الشعوب الجرمانية ، وهما الإنجليز السكسون في إنجلترا ، والسكنديناويون بالدنمارك والنرويج والسويد . ويقع وراء هذه الإمبراطورية من جهة الغرب بقايا المدينة الكلتية . وإلى الجنوب من مملكة شارلمان تقع أملاك الدولة الإسلامية ، إذ شمل حكم المسلمين كل أراضي إسبانيا تقريباً عدا بعض الأراضي في أقصى الشمال ، وكذا نهر برشونة الذي استولى عليه شارلمان كما بسط المسلمون سلطانهم أيضاً على شمال إفريقية وشنوا هجمات بحرية عنيفة على الجزائر الواقعة في غرب البحر المتوسط ، وامتدت غارات المسلمين حتى بلغت سواحل جنوب فرنسا .

واتصلت الامبراطورية الكارولنجية بأملأك الصقالبة في الجهات الواقعة إلى الشرق والممتدة من بحر البلطيق إلى نهر الدانوب . وعلى الرغم من أن شارلمان قام بحملات حرية عديدة إلى ما وراء نهر الألب ونهر السال اللذين يؤلفان الطرف الشرقى للأراضى الجرمانية ، فالواقع أن هذه الحملات لم تكن في جوهرها إلا حملات تأديبية إذ لم يحاول شارلمان أن يحتل الإقليم الذى أغار عليه .

وشهد القرن التاسع الميلادى ما قام في غرب أوروبا من إمارات مسيحية شملت الامبراطورية الكارولنجية وانجلترا الأنجلوسكسونية والبلاد الكلتية وكلها أصبحت فريسة للمغربين من غير المسيحيين ، فخرج من اسكنديناوه آخر هجرة جرمانية كبيرة فأخذ الفيكنج يغرون بحراً على سواحل غرب أوروبا وينهبونها وبالتدريج أخذوا يتوغلون إلى داخل البلاد . فالأراضى المنخفضة وغرب فرنسا والجزائر البريطانية تعرضت لما أحدثه الفيكنج من التخريب الشامل . وإذ تهيأت للفيكنج الأحوال للإستيلاء على إقليم من الأقاليم جاء من بلادهم في أعقابهم فلاحون لزراعة الأراضى الجديدة والاستقرار بها .

وما كاد القرن التاسع الميلادى ينتهى حتى صار للفيكنج سلسلة من الإمارات امتدت من نوجفورود إلى البحر الأسود واتصلت هذه الإمارات تجارياً بالقسطنطينية وترتب على ذلك أن تحولت إلى المسيحية بفضل المبشرين البيزنطيين ، فأضحت بذلك تؤلف جانباً من مدينة شرق أوروبا .

وإذ أثار الفيكنج الاضطراب بشمال أوروبا المسيحية أخذ سلطان المسلمين يمتد ويتسع في الجنوب . ففي أثناء القرن التاسع استولوا على جزائر البليار وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ، وأغاروا على جنوب إيطاليا بل حاصروا رومانيا .

على أن ما تعرضت له أوروبا المسيحية من هجمات لم تلبث أن توقفت في

القرنين العاشر والحادى عشر . ومنع ذلك فقد ازدادت حالة أوروبا سوءاً وخاصة من الناحية الاقتصادية إذ حل الخراب بالمائر التى تقع حول الكاتدرائيات والأديرة ، وتناقص عدد السكان ، وخربت الأراضى الزراعية وتحولت إلى غابات أو إلى مراعى . ثم أخذ المجتمع ينهض بالتدريج بعد ذلك ، فعلى الرغم من أن جذور حضارة العصور الوسطى امتدت فى أعماق الماضى إلا أنها نبتت وأينعت أثناء القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . وظهر النظام الإقطاعى فى فرنسا ، وساد بالجملة وإيطاليا وألمانيا ، وأيضاً بالأراضى المقدسة التى استولى عليها الصليبيون فى فلسطين . على أن الترتيب الزمنى اختلف باختلاف البلاد .

والخلاصة أن غرب أوروبا كان إقليماً مترابطاً توافرت به الحصوبة والمياه وساعده مناخه وثرأ تربته إلى جانب التجانس بين سكانه الذين ارتبطوا بالحضارة الرومانية المسيحية وبالمذهب الكاثوليكي وباللغة اللاتينية ، على جعل الإقليم كله يشترك فى تراث واحد ومشاكل واحدة .

الاقطاع

تعريفه ونشأته

في أثناء العصور الوسطى بأوروبا تعتبر القلعة والضيعة والقرية والمدينة مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وللناس الذين يعيشون بكل من هذه المواضيع نظمهم الخاصة التي تتلاءم واحتياجاتهم وظروف معيشتهم والمنطقة التي يقيمون بها . وقد استخدم المؤرخون مصطلح «النظام الإقطاعي» ، للدلالة على النظم السائدة بكل مركز من مراكز الحياة السالف الإشارة إليها .

وقد عرف بعض المؤرخين النظام الإقطاعي بأنه «صورة من المجتمع توافر به من الخصائص ما يجعل تعريفه وتحديد أمرأ سهلاً يسيراً» . وهذه الخصائص والمظاهر يصح تلخيصها فيما يأتي : نمو التبعية الشخصية وتطورها في المجتمع وما كان لفئة حرة خاصة من مكانة رفيعة في المجتمع ، والأنواع المختلفة للحقوق التي على الأرض وارتباطها بالتبعية الشخصية ، وانقسام السلطة السياسية بين جماعة من الأفراد يمارسون ~~السلطات~~ والوظائف التي كانت تمارسها الحكومة ، فانتقلت إليهم بعد تداعي الدولة وانهارها . وهذا النوع من المجتمع هو الذي ساد غرب أوروبا منذ القرن التاسع الميلادي وحتى نهاية القرن الثالث عشر .

وأما البعض الآخر من المؤرخين الذين حاولوا أن يكونوا أكثر تحديداً وأن يضعوا تعريفاً فقهياً وقانونياً للنظام الإقطاعي ، فقد عرفوه بأنه «علاقة عن طائفة من النظم ^{فرضت} على الرجل الحر الولاء أو التبعية والخدمة» ، ولا سيما الخدمة الحربية ، ^{يؤمها} لرجل حر آخر هو السيد الذي يلتزم بحماية تابعه والإففاق عليه ، وتطلب ذلك منه أن يبدل له قطعة أرض اتخذت اسم إقطاع .

وأما الأستاذ كوبلاند فيعرفه بأنه « تجربة عملية فرضتها الحوادث على المجتمع الإنساني عامة، والمجتمع الأوربي خاصة ، لتستعيض بها عن الحكومة المركزية البعيدة عن متناول الجماعات ، ابتغاء الحصول على قسط من الأمن ، وهو الذي من أجله عملت الجماعات وكادت وبذلك في سبيله ما بذلت منذ فجر التاريخ » (١) .

ولا شك أن هذا التعريف الواضح البسيط للأستاذ كوبلاند يتفق مع ما قدمنا مع مراعاة الظروف والأحوال السياسية التي مر بها غرب أوروبا والتي مهدت لنشأة النظام الإقطاعي الذي غدا أصلح نظام يتفق وحاجة الناس في ذلك الحين . وعلى ذلك فيمكننا استخلاص تعريف واضح وسهل للنظام الإقطاعي ، على ضوء ما تقدم ، فنقول إنه :

« نظام سياسي واجتماعي واقتصادي أوجدته الحاجة وفرضته الظروف في غرب أوروبا ، وكان هذا النظام يتناسب وحاجات الناس في تلك العصور ، . وكيفما كان الأمر ، فالعناصر الجوهرية للنظام الإقطاعي تتمثل في : السيد ، والتابع ، و الإقطاع . والتابع يرتبط بالسيد بعلاقة شخصية وثيقة ، ويحلف له يمين الإخلاص ويذل له الولاء ، وهو في نظير ذلك يحصل من السيد على إقطاع من الإقطاعات أي أنه يستغل شيئاً ذا فائدة ونفع ، هو عادة عبارة عن قطعة أرض . وفي هذا تفسير واضح لما أوجزه الأستاذ فينوجرادوف بقوله إن « أركان العقد الإقطاعي هي يمين الولاء والتقليد » (٢) .

وقد اقترن بدء العلاقة بين السيد والتابع بإجراء طقوس خاصة كأن يركع التابع أمام السيد ويجعل يديه بين يدي السيد ثم يحلف يمين الإخلاص .

(١) راجع موسوعة كبرج في تاريخ العصور الوسطى ، قاموس تاريخ أسبانيا ج ١ ص ١١٤ وما يليها . وانظر أيضاً : كوبلاند ؛ وفينوجرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا ص ٤ .

(٢) كوبلاند : ص ٦٤ .

علاذا جرى بذل الإقطاع منحه السيد عادة ما يرمز إلى ذلك كأن يقدم له شيئاً من تراب الأرض .

وقد استغرقت عملية النمو الإقطاعي فترة القرنين التاسع والعاشر على أقل تقدير وقد سبقتها ولا شك مقدمات مهدت لظهور هذا النظام وكان أهمها حركة التطور نحو المحلية ، وكذا نظم الحكومة الكارولنجية . فهذه الحكومة لم تستطع أن تؤثر في حركة التطور نحو المحلية بأكثر من أنها أوقفت تيارها دون أن تستطيع إيقافها هي ذاتها ، ومن الأدلة الواضحة على ذلك :

١ — أن شارلمان حول الكثير من السلطة المركزية لنوابه الإقليميين ولرؤوسهم .

٢ — اعتياد الأباطرة والملوك الكارولنجيين تقسيم الملك بين أولادهم من بعدهم .

٣ — منح براءات الإعفاء التي جعلت أراضي أصحابها بمنأى من تدخل عمال القضاء والشئون المالية من موظفي الدولة .

٤ — نظام إرسال المبعوثين الملكيين Missi Dominici فقد دل هذا النظام على ضعف السلطة المركزية ، وإن قصد به إظهار قوتها .

٥ — عجز الدولة عقب وفاة شارلمان عن صد غارات الشماليين وغيرهم . أما عملية نضج هذا النظام الإقطاعي فاستطيع القول بأنها شغلت الفترة التالية وهي القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، إذ ازداد ضعف سلطة الحكومة المركزية وتزايدت سلطة السادة المحليين . وهكذا قامت بين السيد والتابع علاقة على أساس تعهدات مشتركة والتزامات متبادلة ، وأصبحت هذه العلاقة هي القاعدة السائدة .

و خلاصة القول : أن نظاماً وسطاً بين اللاحكومة ، والحكومة الملكية المركزية بدا في الظهور دون أن يكون هذا النوع أو ذاك ، على حين ظل النظام الملكي ماثلاً من بعيد مثل طيف الخيال ، . وأصبح الحال على حد قول المؤرخ الفرنسي جيرار في وصف الإقطاع : « أن الأرض أساس المجتمع الإقطاعي ، فن تملك أرضاً صارت له أحقية في السلطة والحكم بحسب ما بيده من الأرض سواء أكانت هذه الأرض قطعة صغيرة أم كبيرة » (١) .

أصول الإقطاع

(١) الأصول الجرمانية :

يصح أن نلتبس النظام الإقطاعي في العصور الوسطى في ملكة الفرنجة الميروفنجيين ، لاسيما في قلب المملكة ، أي في غالة ، بين نهر اللوار ونهر الراين . والواقع أن غالة زمن الميروفنجيين طفحت بالفوضى والاضطراب ولعل السبب الأساسي لهذه الفوضى يرجع إلى ما وقع من العداوات بين الأسرات الحاكمة ، والتي نبعت من العرف الذي يقضى بأن يقتسم الإرث أولاد الملك عند وفاته ، فنشأت بذلك ممالك : أوستراسيا ، نويستريا ، برجنديا . يضاف إلى هذا العامل ما حدث من المنازعات بين الفئات الأرستقراطية في الأقاليم من أجل السلطة والنفوذ . وزاد الأمر سوءاً أن الحكومة لم يكن بوسعها أن توطد الأمن والسلام ، وتكفل الطمأنينة للسكان نظراً لأن النظام الإداري كان بسيطاً وساذجاً ، ولم يكن الموظفون كثيرون العدد ولم يكن لهم من الدراية والخبرة بأعمال الحكومة ما يصح معه الاطمئنان إليهم . وهذا المجتمع يعتبر خير وسط وأحسن بيئة تنمو بها قنات الاتباع ، ولا سيما الاتباع المسلحون . فأولئك الذين استشعروا الضعف وأحسوا بالحاجة إلى الحماية سعوا إلى التماسها عند جيرانهم الأقوياء مقابل

(١) انظر : كوبلاند وفينو جرادوف ، للرجع السابق ص ٢١ .

تأدية نوع من الخدمة . ومن ناحية أخرى حرص كبار الملاك ، إما رغبة منهم في أن يشاركون في الأمور السياسية ، أو الإفادة من الفوضى السياسية . في توطيد سلطانهم وزيادة ثروتهم على أن يتخذوا لهم أتباعاً لتحقيق أغراضهم ، ويصح أن يمدوهم بالسلاح .

وعلى أى حال فإن العرف جرى على أن يجعل الرجل الحر نفسه تحت حماية شخص آخر وفي خدمته ، وهكذا وجد الأتباع في النظام الإقطاعي . ونظام الأتباع الذي وجد عند الألمان ظل معروفاً في القرون التالية عند القوط والفرنجة واللومباردين والانجليز السكسون ، وكذا عند الفيكنج .

وهذه الرابطة الشخصية التي قامت بين السادة وأتباعهم ظلت قائمة بين الغزاة الجرمان الذين استولوا على أملاك الدولة الرومانية وكانت ذات قيمة لهم ولأتباعهم . فإذا أصبح المحارب الحر الذي يرى في حمل السلاح ذاته مظهراً من مظاهر التشريف ، تابعاً لأحد السادة فإنه يضع ذلك من تلقاء نفسه وعن طيب خاطر ، ويتطلع إلى أن يئذل له السيد من سبل المعيشة ما يتفق مع مكانته . ولا يجد التابع في ذلك امتحاناً لكرامته ، وليس ملزماً بأن يرتبط بالسيد مدى الحياة فيصبح أن تنقطع الصلة باتفاق الطرفين . على أن الفتى الذي يلحق بجماعة من أجل المغامرة والخبرة والتجربة ، يأمل عادة في أن يكون له أتباع Comitatus (Gefolgschaft) هو الآخر في يوم من الأيام ، فن الطبيعي أن كل رجل تتوافر لديه الثروة والشهرة يجذب إليه الرفاق .

(ب) الأصول الرومانية :

كان نظام الأتباع معروفاً أيضاً عند الرومان ، وإن اختلف في بعض النواحي عن نظام الأتباع أو الرفاق عند الجرمان . وكان النظام الروماني يتخذ اسم Clientele أى (التبعية) ، فإذا أطلق الروماني للعبد حريته جرت العادة بأن يظل الشخص المعتق من موالى سيده وأتباعه . وهذه العلاقة

يصح أن نلصقها في العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية إذ أن احترام الجندي لم يلق من التقدير ما يلقاه النبلاء والأشراف لأن معظم الرعايا الرومان ظلوا زمناً طويلاً يتجنبون الخدمة العسكرية فكانت الفرق الرومانية تتألف أساساً من المتبررين (أى من غير الرومان) . ولجأ كبار الأعيان من الرومان إلى أن يتخذوا لأنفسهم حرساً من المأجورين الذين يفتنون إلى أصل وضيع أوكانوا من الأرقاء . ووفقاً للعرف يصح للعبد المتق أن يكون من أتباع أحد سراء الرومان بمقتضى اتفاق يقضى بأن يرعاه هذا الرومانى ، فاعتمد التابع أساساً على السيد في حياته ، وفى مقابل ما يناله من المنح المالية والمؤونة والياب يشترك فى المناسبات العامة مع حاشية السيد . على أن التبعية التى لم تنطو على خدمة عسكرية تختلف عن نظام الرفاق المعروف عند الجرمان ، وهذا الاختلاف ظل قائماً على الرغم من انتشار النظام الرومانى بين الفرنجة الذين غزوا غالة .

(>) اندماج الأصول الجرمانية والرومانية :

جنح نظام الاتباع أو الرفاق المعروف عند الجرمان ، ونظام التبعية المعروف عند الرومان إلى أن يندججا سوياً فى نظام واحد مع مرور الوقت . وهذا الاندماج يتمثل فى المحاربين الجرمان الذين اتخذهم الأعيان الرومان . فإذا كان السيد الرومانى يعتبر جنده المأجورة أتباعاً محاربين ، فالراجح أن الجرمان لم يعتبروا أنفسهم سوى فئة الاتباع المعروفة عند الجرمان .

ويقين من كل ذلك ما كان من العلاقة بين السيد والتابع فى النظم الجرمانية ، والرومانية ، والرومانية الجرمانية .

المراحل التى مر بها النظام الإقطاعى

كما قدمنا ، تنقسم هذه المراحل إلى ثلاث أقسام رئيسية سنتناولها هنا فى شئ من التفصيل ، ولكننا قبل ذلك يجب أن نذكر ونستلفت الأنظار

إلى وجوب وضرورة ملاحظة الجوانب المختلفة للحياة في العصور الوسطى وخاصة الجانب السياسى والجانب الاجتماعى ، والجانب الاقتصادى فى النظام الإقطاعى من خلال عرضنا لأحداث وتفاصيل كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث .

أولاً — مرحلة نمو وتطور الإقطاع

الإقطاع والتبعية :

لما كانت الزراعة هى المظهر الأساسى للنشاط الاقتصادى ، وتعتبر أهم مصادر الثروة فى هذا المجتمع ، كان من الخير أن يذل للتابع من الأرض ما يكفل معاشه . وليس لدينا من الأدلة ما يثبت أن الجرمان الأوائل عرفوا من أنواع حيازة الأراضى سوى الملكية البسيطة ، ولم يرد فى وثائق العصر الميروفنجى ما يدل على أن التابع حاز الأرض على أنها ملك خاص والراجع أن ما بذله السيد للتابع من الأرض كان على سبيل الاستغلال والانتفاع منها لمدة طويلة وجعل له الإشراف المباشر على الأرض . وانتشر هذا النوع من الحيازة فى مملكة الفرنجة مثلبا انتشر فى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر عهدها .

والواقع أن الرومان عرفوا أنواعاً مختلفة من الانتفاع بالأرض وحيازتها: فهناك الضياع الكبيرة Villas التى تقسم إلى أجزاء صغيرة أو قطع صغيرة من الأرض Praedium ولم يزرعها أصحابها بأنفسهم بل تولى زراعتها الفلاحون أو العبيد الذين يستغلونها لصالحهم مقابل دفع خراج معين ، وتأدية بعض الأعمال . وهناك نوع آخر يعرف باسم Beneficium وهذه لا يرتبط بها عادة تأدية عمل من الأعمال إنما يؤدى حائزها خراجاً معتدلاً بل إنه لا يؤدى فى بعض الأحوال خراجاً مطلقاً ، فالملك يمنح لسبب من الأسباب قطعة

أرض لشخص من الأشخاص دون مقابل ، وهى تعطى عادة لأجل معين ، وأحياناً لمدى الحياة . وكانت هذه الأرض تمنح بما اشتملت عليه من المباني والأدوات الزراعية والحيوانات ، فضلاً عن الفلاحين والأرقاء .

وهذان النوعان من الانتفاع بالأراضي عرفهما الجرمان الذين استقروا بأملأك الامبراطورية الرومانية ، وقد توسعت الكنيسة فى غالة الميروفنجية فى بذل هذه المنح لى تحصل على الرجال اللآزمين لزراعة أراضيها فكان فكرة قيام الرجال الأحرار باستغلال الأراضي عرفها العالم الرومانى الجرمانى على الأقل فى القرن السابع .

أما الإقطاع الحربى Benefice of the Vassal فهو ما بذل فى مقابل خدمة عسكرية . وليس من الواضح تماماً إذا كان هذا النوع من الإقطاع قد ظهر قبل القرن الثامن الميلادى ، وكيفما كان الأمر فالكارولنجيون هم الذين حولوا هذه الصورة من الحياة إلى نظام فرنجى عام . فالعروف أن جيش الفرنجة القديم كان يتألف فى معظمه من المشاة ، أى من الرجال الأحرار الذين ينهضون بأسلحتهم للقتال دون أن يتقاضوا أجراً . ولما صار شارل مارتل دوقاً على الفرنجة واشتدت حاجته إلى قوة حربية فتيه تطلع إلى المحارب الفارس المجهز لمهنة القتال . ولم يكن ليجد ضالته فى رجل ينتزع قوت يومه من الزراعة . ولما لم يتوافر لشارل مارتل المال اللازم لإنشاء جيش قوى أو للحصول على جنود مأجورة ، لم يسعه إلا أن يمنح الأرض للجنـد ، ويوفر لهم الوسائل اللازمة لاستغلالها فـالمقصود بالإقطاع الحربى هو أن يقدم للتابع مكافأة مقابل ما يؤديه من خدمة خاصة ونظراً لأن الكنيسة القومية امتلكت مساحات كبيرة من الأراضي يتولى زراعتها مستأجرون أرغمها شارل مارتل على أن تمنح أراضيها لإقطاعات لجنده الذين حلفوا له بيمين الإخلاص وبذلوا له الولاء ،

ووعدوا بأن يخدموه طوال حياته^(١).

وقد أطلق شارل مارتل على هؤلاء الجند الذين حازوا الإقطاعات مقابل الخدمة ، اسم « أتباع السيد Vassi Dominici ، وكلية « تابع ، كانت سائدة في غالبية المير وفنجية قبل عهد شارل مارتل ، وإن كان يقصد بها عادة شخص وضيع المسكنة . والواقع أنه حدث تغير كبير بعد ذلك وحتى عهد شارلمان ، ففي السنوات الأخيرة من حكم يبين الثاني لم يكن منح الضياع للأتباع لاستغلالها إلا أمراً طارئاً . ولما ولي شارلمان الحكم لم يختلف الملك عن سائر أفراد الطبقة الحاكمة من الدوقات والكوتات وكبار الملاك والأعيان والأساقفة ورؤساء الأديرة في منح الضياع للأتباع .

وعلى الرغم من أنه ليس من الضروري وجود ارتباط بين الأرض والتبعية فإن اتحادهما صار أمراً شائعاً ، بل إنه بالتدرج تم اندماج التبعية في الإقطاع . وبذلك توافر لدينا العناصر الأساسية التي تألف منها النظام الإقطاعي . وأهمت عوامل عديدة في نمو التبعية وانتشارها زمن شارلمان وخلفائه ، وأول هذه العوامل ما جرى عليه الكارولنجيون من اتخاذ سياسة الإكثار من عدد الأتباع لكي يوطدوا سلطتهم ، وفرضوا على الموظفين الذين يخدمهم أمثال الكوتات وحكام الأطراف والدوقات واجب الدخول في تبعية الملك فالترزم الموظفون بحكم مناصبهم بأن يبذلوا للملك الولاء والطاعة على النحو الذي يلتزم به السيد للتابع . وهذه السياسة نفسها اتبعها ، بتشجيع رئيس الدولة ، كبار الموظفين إزاء الموظفين الذين يلونهم في الرتبة . . . وهكذا . فالنظام الإقطاعي في الإمبراطورية الكارولنجية والبلاد التي انتقل إليها خارج هذه الإمبراطورية ، قام على الارتباط الوثيق بين التبعية وحيازة الأرض . ويتضح هذا الارتباط الوثيق بين

التبعية والإقطاع في العلاقات الإقطاعية التي سادت زمن شارلمان وخلفائه ومن الدليل على هذه الصلة ما حدث سنة ٨٢٧ م من النتائج التي ترتبت على تنصيب شارل الإبن الأكبر للويس التقي ملكاً أثناء حياة أبيه ، على الإقليم الواقع بين فريزيا ونهر السين ، بأن صار ينتمى إليه كل الأساقفة والكونتات وأتباع الملك الذين حصلوا على إقطاعات بهذه الجهات ، وتحتم عليهم أن يقسموا له يمين الإخلاص .

ومن الروابط القانونية بين التبعية والإقطاع ما يشير إليه القانون الذي أصدره سنة ٨١٥ م الإمبراطور لويس التقي عن اللاتين الإسبان الذين تقرر قبولهم في سبانيا والطرف الإسباني ، إذ جعل لهم الإمبراطور الحق في الالتجاء إلى حماية الكونتات الذين يحكمون بهذه الجهات . فإذا حصلوا منهم على إقطاعات ألتزموا بأن يؤدوا الأتباع في أراضي الفرنجة إلى سادتهم عن إقطاعات مماثلة .

وما هو معروف من أن الإقطاع لا ينتهي أجله إلا ب وفاة التابع أو السيد أو حين يصبح السيد ملكاً ، إنما يدل أيضاً على الصلة بين التبعية والإقطاع .

ومنذ أواخر عهد شارلمان تعتبر الخدمة المطلوبة من التابع السبب المباشر لمنح الإقطاع فإذا أغفل التابع ما هو مقدر عليه من الخدمة أو لم يؤدها على الوجه السليم ، اختفى المبرر الذي بمقتضاه يجرى بذل الإقطاع ، بل يجوز عندئذ استرداده من التابع .

وتعتبر مصادرة الإقطاع أهم عقوبة توقع على التابع الذي لم يف بالتزامات التبعية .

المجتمع الإقطاعي :

من المعروف أنه منذ وفاة شارلمان وحتى قيام أسرة كايه في الحكم سنة

٩٨٧ تعرضت البلاد لأخطار واضطرابات في الداخل والخارج وطفحت البلاد بالقوضى لمدى قرن ونصف من الزمان ، وفي هذه البيئة أخذت النظم الإقطاعية تشق طريقها وأخذ المجتمع الإقطاعي ينمو في سرعة وسهولة ، وانتشر نظام « أتباع الملك » الذين أخذوا يمنحون بعض أراضيهم إلى فئات من الرجال الأحرار الذين أصبحوا بدورهم أتباعاً لأتباع الملك ويلبهم أتباع أتباع الأتباع . . . وهكذا وجدت سلسلة من الأتباع يعبر عنها في الكتب التي تعالج هذا الموضوع باسم « السلم الإقطاعي » أو « الهرم الإقطاعي » .

وقد اعتبر رجال القانون في العصور الوسطى أن للقطعة الواحدة من الأرض مالكين اثنين : متبوع وتابعه ، أو سيد وتابع ، وللأول حق الملكية المباشرة *Dominium Directum* ، وللثاني حق الملكية الإقطاعية *Dominium Utile* أى حق استغلال الأرض. ومع ذلك فمن الناحية الإقطاعية يمكن تقسيم الإقطاع الواحد إلى إقطاعات صغيرة بين إقطاعيين ثانويين *Under—Tenants* وهؤلاء يصبحون بدورهم أتباعاً للتابع الذي أخذ الإقطاع من سيد أعلى ، بشرط ألا تخل هذه العملية بواجبات هذا التابع الوسيط نحو السيد الأعلى .

وعلى أى حال فمن الواضح خلال العصور الوسطى أن الأصل في عملية التملك هو التملك الإقطاعي ، ومع أنه كان هو الأساس المألوف في توزيع الأرض فإن لم يكن الأساس الوحيد إذ بقيت في فرنسا وألمانيا بقايا كثيرة من الملكية الحرة . أى الملكية المطلقة الخالية من أى شرط من شروط الخدمة أو الإيجار ، ولو أن هذه الملكية أخذت تقل بالتدريج .

فتدل وثائق العصور الوسطى على إزدیاء عملية التملك الإقطاعي على حساب الملكية الحرة ، فإذا استثمر أحد صغار الملاك ضرورة لحماية أحد السادة كان عليه في تلك الحالة أن يلجئ أرضه لذلك السيد أى يتنازل

عنها له ثم يستعيدها منه إقطاعاً . وهذه العملية التي عبر عنها الأستاذ فيتو جرادوف «بالإلغاء الإقطاعي» ، وأورد في ذلك قصة تنقلها عنه هنا لدلائها في إيضاح هذه العملية وخلاصتها : « أنه في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي امتلك أخوان هما : هردي Harred وهاكت Hacket امتلاكاً حراً ضياعاً واسعة في إقليم بوبرانج ، واضطهدهما جاران إقطاعيان قويان هما : كونت دي جين ، وكونت دي بولوني ، وحاول كل من هذين الجارين أن يفرض سيادة على هذه الضياع . ورغبة في وضع حد لهذه الاضطهادات نزل الأخ الأكبر وهو هردي عن أرضه لأسقف مدينة تيروان ثم تسلمها منه إقطاعاً وراثياً ، على حين سلك الأخ الأصغر هاكت سيلاً مشابهاً فيما يتعلق بأملأكه مع كونت دي بولوني ، .

ثم يعلق فيتو جرادوف بقوله : « ولم يكن باستطاعة كل من الأخين إلا أن يلجئ أرضه ليستردها على هذا النحو الإقطاعي لأن الشخص الذي لم يرتبط برابطة الإقطاعية تعرض لأخطار واضحة كل الوضوح » (١) .

وهكذا التمس صغار الملاك حماية من هم أكبر منهم شأنًا للدفاع عن أنفسهم بينما استطاع كبار الملاك أن يتخذوا لأنفسهم جنوداً بفضل ما بذلوه من إقطاعات للمحاربين الأشداء .

أما أتباع غير هؤلاء من السادة فيصبح أن يكونوا من فئات اجتماعية شديدة الاختلاف بل يجوز أن نجد بينهم أرقاء أو أقناناً ، ورجالاً لم يكونوا أصلاً أحراراً (٢) .

والواقع أن ظروف الحياة في العصور الوسطى وتطور النظم الإقطاعية ونموها منذ القرنين التاسع والعاشر أدى آخر الأمر إلى ظهور

(١) أنظر : الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا صفحة ٦٦ ، ٦٧ .

Stephenson : Medieval Feudalism, pp. 17-18.

(٢) أنظر :

صورة جديدة في المجتمع الإقطاعي ، ألا وهي صورة التابع الذي يبذل ولاءه لأكثر من سيد واحد ، أو بمعنى آخر ظهر تعدد التبعية إذ كان من المستحيل على التابع أن يزيد من ثروته إلا بالحصول على إقطاعات جديدة متعددة . ولما كانت التبعية قد وصلت في تطورها إلى اعتبارها مجرد إجراء قانوني شكلي فقد أخذ التابع يبذل ولاءه لسادة عديدين حسبما يحصل عليه من إقطاعات . والنتيجة الطبيعية لذلك ما حدث في القرن الثاني عشر من التفرقة بين الولاء للسيد ، والتبعية العادية . فالنوع الأول لا يبذل إلا للسيد الأول ويحدد التزامات التابع نحو سيده . أما النوع الثاني فيصح أن يبذل لسادة عديدين للوفاء بما تطلبه إقطاعه من التزامات . وعلى الرغم من تعقد الروابط السياسية والاقتصادية ، فإن جانباً كبيراً من نظام التبعية القديم استمر حتى أواخر العصور الوسطى .

وعلى أى الأحوال فيجب أن نلاحظ ونحن بصدد الحديث عن المجتمع الإقطاعي أنه من الصعوبة بمكان وصف هذا المجتمع وصفاً دقيقاً أو القاطع في أى من الأمور التي تتصل به إذ لم توجد حكومة إقطاعية نموذجية في دولة من الدول إطلاقاً في العصور الوسطى . وأن كل ما لدينا لا يعدو جملة من الأمثلة العملية الدالة على خصائص الحكم الإقطاعي نفسه فقد بدأ في ألوان مختلفة باختلاف الأحوال والظروف والبلاد التي نشأ فيها . فلم يوجد في العصر الإقطاعي دولة ذات نساج محكم إذ يجب مراعاة ظروف العصر حيث لا طرق عمدة تربط بين أجزاء الدولة الواحدة ، ولا أمة ، ولا قومية ، ولا جيش قومي متجانس ولا ثروة عامة ، ولا تقدم على يذكر ، وكل ما كان لا يعدو فقط مجموعة من العادات والتقاليد ألقتها وأطمأنت إليها عقول أهل العصر . وإننا لنلاحظ مثلاً اختلافاً في العملة والمقاييس والمسكيبيل من منطقة إلى منطقة وحتى داخل البلد الواحد ، وهذا إلى جانب صعوبة الاتصال وتبليغ وتنفيذ الأحكام ، ولذلك فإن

العرف والعادات والتقاليد هي التي سادت تلك العصور وهي التي سيطرت وكانت بمثابة قانون لهذا المجتمع الإقطاعي .

وننتقل الآن للحديث عن أركان المجتمع الإقطاعي التي تمثل حجر الزاوية في هذا النظام ، وهي : القرية ، والضبعة أو الدومين .

١ - القرية : الواقع أن غرب أوروبا خضع لأسلوين من أساليب الاستقرار والسكن هما القرى والكفور ، وقام نظام القرى في الإقليم الذي ساد فيه العنصر الجرمانى ، بينما استقر سكان البحر المتوسط في الكفور .

وساد نظام القرى أنحصب الأقاليم الزراعية التي تعتبر المراكز الأساسية للسلطة السياسية ، ويعتبر جانب كبير من أوروبا أرض كفور . ولكل قرية من الحقول الصالحة للزراعة حقلان أو ثلاثة حقول تجرى زراعتها دورياً . ففي القرية التي بها حقلان تصير زراعة أحد الحقلين ويبقى الحقل الثانى بوراً . وإذا كان بها ثلاثة حقول جرت زراعة أحدها ، يحصل الربيع ، ويبقى الثالث بوراً . ومن الأدلة ما يثبت أن جميع القرى استخدمت أصلاً نظام الحقلين ، ولم يكن نظام الحقول الثلاثة إلا مظهراً من مظاهر التطور حدث في بقاع شديدة الحصوبة .

وإلى جانب ما تمتلكه القرية من أراضى صالحة للزراعة ، كان بها أيضاً أراضى جرداء تكاد تكون عديمة الجدوى ، وبها أيضاً المراعى ، وهي أراضى جيدة التربة كثيرة المياه تقع بالقرب من الأنهار ، ويجود بها العشب ، ثم أراضى الكلاء ، والغابات .

وأراضى الحقول القابلة للزراعة تقسم إلى قطع طويلة قليلة الاتساع ، والراجح أنه كان يتم توزيعها بالاقتراع دفعة واحدة كل سنة . ومن الأدلة ما يشير إلى أن هذه الأراضى بأنواعها ارتبطت دائماً بالمساكن (المحلات)

فكل مسكن تألف من كوخ في القرية ، وحديقة مسورة ، وربما كان بها بعض أشجار الفاكهة ، وقدر متساو من الأرض في كل حقل ، فضلا عن حق المشاركة في الإفادة من الأرض البور والكلاء والمراعى والغابات . وبلغ زمام المحلات العادية نحو ثلاثين فدانا من الأرض في الحقول الصالحة للزراعة .

وأداة الزراعة الأساسية عبارة عن المحراث الثقيل الذى يستطيع أن يقلب الأرض ثقيلة التربة التى اشتهرت بها شمال أوربا . وهذا المحراث كان يحرقه أول الأمر ثمانى ثيران ، ثم حدث فى القرن الثانى عشر أن صار يحرقه أربعة ثيران . ومن أهم مشا كل الزراعة فى العصور الوسطى توفير العلف للثيران صيفا وشتاء .

والمعروف أن القرية ظلت حتى القرن الثانى عشر تكفى نفسها اقتصادياً إذ أنبتت طعامها وشربها ، وقام نساء القرية بصناعة الملابس من الصوف الناتج من الأغنام .

أما الصناع الذين لا غنى عنهم أمثال الحدادين والطحانين فإنهم كانوا من أهل القرية ، ولم يمارسوا تلك الحرف إلا شطراً من وقتهم وتستطيع القرية أن تعيش دون أن تبادل سلعها مع العالم الذى يقع وراء حدودها . وعلى الرغم من أنه جاز أن يتم تبادل المنتجات عن طريق المقايضة ، فالواقع أن هذه المقايضة كانت تجرى فيما يزيد عن حاجة السكان من المواد ، كأن تجرى مقايضة الخنازير فى قرية بالدجاج المتوافر فى قرية أخرى :

وما ينبغى ملاحظته هو أن القرية لم تكن أكثر من مجموعة أكواخ تحيط بها أراضى زراعية ، ومراع ، وأرض كلاء ، وأراضى بور ، وغابات ويشترك أهل القرية فى زراعة الأرض فيقررون متى تجرى الزراعة ومتى

يتم الحصاد ومتى يحني المحصول وأى المحصولات يصح زراعتها وماذا يستعمل من البذور . واختص بعض القرويين بأعمال معينة ، ويشرف على تنفيذ القرارات هيئة تنفيذية . وبالقرية ملاحظ يشرف على المراعى وقطعان الماشية والختاير . ويلاحظ الحيوانات فى الكلاء . وبالقرية دائماً نوع من المحكمة القروية تقوم بتسوية المنازعات حول المساكن وإزالة العقوبة بالذين لم يودوا أعمالهم .

وتعتبر القرية أيضاً وحدة اجتماعية ودينية فللقرويين أعيادهم واحتفالاتهم ويتزوج الأبناء والبنات فى نطاق المجتمع القروى . وحينما نأى نظام الأبوشية القروية فى القرنين التاسع والعاشر ، أضحت للقرية عادة كنيستها وقسيسها وتآلف جماعة من كبار رجال القرية للنظر فى أمور الكنيسة . فالقرية أضحت هى الوحدة الأساسية فى الحياة الريفية فى العصور الوسطى .

ومعظم السكان الذين عاشوا فى القرية فى القرن الحادى عشر لم يكونوا أحراراً فلم يستطيع القروى أن يغادر أرض سيده إلا بعد موافقته ، وليس من حقه أن يقتنى متاعاً شخصياً فكل ما يملكه يعتبر ملكاً للسيد ، ولا يستطيع أن يتزوج من توابع وحواشى سيد آخر . وللسيد أن يزيد فيما يستحقه من الخدمات والإيجارات على أهل القرية كلها رأى فى ذلك مصلحة له . غير أن ساكن القرية لم يكن رقيقاً بالمعنى المعروف فلا يستطيع السيد أن يبيعه ، ولا أن يطرده إلا إذا أعطاه ما يملكه من مسكن . وليس فى استطاعة السيد قانوناً أن يضربه أو ينزل به عقوبة بدنية ، وظهر هذا الفارق واضحاً فى إنجلترا . وليس فى استطاعة القروى غير الحر أن يرفع دعوى مدنية ضد سيده ، وليس له عليه حقوق ملكية ، غير أنه يستطيع أن يرفع إلى محاكم الملك ما يوجهه إلى السيد من تهمة جنائية . وليس للتابع حقوق اقتصادية لدى السيد . ولما كان للعرف والمادة أهمية كبيرة فى العصور

الوسطى فإن معظم السادة تقاضوا من الخدمات ما كان لأسلافهم ، بل إنه كان لهم الحق في زيادتها . ومع ذلك فأهل القرية يعتبرون قوة لمساندة السيد في العدل ، ولم يكن للأرض فائدة إلا بفضل جهود سكان القرية .

هكذا كان مجتمع القرية ، وهو كما نلاحظ مجتمعاً طبقى البنيان ارتبط أساساً بالأرض ، ونستطيع أن نقسمه إلى طبقات رئيسية ثلاث هي : طبقة الأبقان أو كما يسمون أحياناً طبقة الفلاحين القراريين أو الفلاحين غير الأحرار ، ثم طبقة المزارعين الأحرار ، وأخيراً طبقة موظفي السيد وخدمه أو أعوان السيد الإقطاعي .

(١) الأبقان : أطلق المؤرخون المعاصرون مصطلحات مختلفة على القروى غير الحر وهذه المصطلحات اختلفت في معناها من إقليم إلى إقليم . ولعل أكثر الألفاظ شيوعاً لفظ قن Serf الذى لم يقصد به إلا القروى ، والذى أطلق في فرنسا على الشخص غير الحر . أما في إنجلترا فقد كان لفظ فلاح Villein يطلق على المستأجر غير الحر . والواقع أنه لم يكن هناك سوى فرق ضئيل بين مكانة الفلاح الانجليزى والقفن الفرنسى .

ومن المستحيل أن نقوم بإحصاء عدد الأحرار وغير الأحرار من العمال الزراعيين في أوائل العصور الوسطى . ولم يكن الفلاحون في المناطق الزراعية بفرنسا فيما يبدو أحراراً في القرن الحادى عشر . وعلى الرغم من أن عملية تحول القرويين الأحرار إلى أبقان ظهرت في ألمانيا في عصر متأخر فإنها كانت كاملة .

وعلى أى الأحوال فإن الخدمات الزراعية هي التي قررت الأحوال الشخصية لأى فرد . والقن أو العبد كان هو قاعدة السلم الإقطاعى أو الهرم الإقطاعى ، وكان هو المستقل بالأعباء ، عليه تقع كل الواجبات ، وليس له إلا ما نذر من الحقوق ، فمن الناحية المدنية ليس له أية حقوق على سيده .

ومن الطريف أنه كان يدفع لسيده غرامة عند زواج ابنته على قاعدة أنها من أملاك السيد في أرضه ، وتزاء هذه الغرامة إذا كان زوجها خارج أرض السيد ، لأن السيد يفقد من أملاكه بهذا الزواج امرأة وما سوف تأتى به من نسل .

وعند وفاة القن لا يستطيع وريثه أن يحل محله في الأرض إلا إذا قدم للسيد فرساً أو ثوراً قوياً اعترافاً بما للسيد من حق في المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض .

على أن التمييز الاجتماعى بين الطبقة الحربية والطبقة الزراعية العاملة ، بالإضافة إلى الزراعة الاكتفائية التى استغنت عن التبادل التجارى والمعاملات المالية إلى درجة كبيرة أدى فى جميع بلاد أوروبا الغربية إلى خضوع الأقتان ، وبناء ضياع السيد الإقطاعى على أكتاف الطبقة الزراعية العاملة^(١) .

(ب) المزارعون الأحرار : هذه الطبقة كانت تشكل كثرة واضحة بالقرية فى العصور الوسطى . بل الواقع أنه يصعب تصور قرية بدون رجال أحرار وأحباب حيازات حرة ، ففضلاً عن الفرسان والجنود الذين أخذوا إقطاعات من السيد نسير الخدمة الحربية ، عاشت فئة كبيرة من المزارعين بموجب اتفاق معين ودفعت لإيجارات ثابتة ، أو أدت خدمات معينة ، وهى خدمات مهما تكن مرهقة ، لم تبلغ من الإرهاق مبلغ الخدمات الزراعية المفروضة وجوباً بصفة عامة على الأقتان .

والواقع أن كثرة من المزارعين عاشوا فى القرية دون أن يحتاجوا إلى الاستناد إلى عهد مكتوب أو اتفاق معين لإثبات علاقتهم التعاقدية بالسيد الإقطاعى وتناقلوا الأرض بالميراث كأن اتفاقاً معيناً قائماً بينهم وبين السيد ، وأدوا خدمات وإيجارات معينة . وهذه الفئة هى أم فئات المجتمع

(١) أنظر وراجح قاموس تاريخ إسبانيا ج ١ ص ١١٤٨ .

القروى إطلاقاً وأفردها هم المزارعون الأحرار . ويجب في هذا الصدد أن نلاحظ أنهم لم يكونوا أحراراً بمعنى أنهم يستطيعون استغلال أراضيهم حسب مشيائهم أو يديرون أراضيهم الزراعية ومراعيهم كل منهم وفق حاجته ، أو يستخدمون فلاحين مستقلين ، إذ الواقع أنهم تعرضوا لدفع الغرامات المالية وإيقاع الحجز على ماشيتهم وعقارهم وأرضهم إن هم خالفوا القوانين التي اصطلح عليها المجتمع .

وقد ظهرت هذه الطبقة بصورة واضحة في إنجلترا وازداد عددهم في الأراضي التي تنمو بها الكروم والجهات الجبلية . ولم يكن معظم هؤلاء الأحرار إلا أتباعاً يدفعون لسادتهم الخراج ويلتزمون في أحوال كثيرة بأن يؤدوا لهم خدمات معينة . وخضع هؤلاء الأحرار لقضاء السيد المحلي الذي استمد سلطته من الملك . أما التابع الذي في خدمة الفارس والمقطع النيل فلا يحاكمهما إلا أسوياءهما من الأتباع في محكمة السيد .

(ح) أعوان السيد الاقطاعي : وهذه الطبقة من موظفي السيد وخدمه اشتملت على عدد غير قليل من المعاوين والوكلاء للإشراف العام ورياسة محاكم القرية وإدارة الحسابات وتمثيل السيد في كل المناسبات ، كما اشتملت على مشرفين عملهم التوفيق بين القرويين والسيد ، وعليهم تنظيم جميع الخدمات الزراعية . هذا فضلاً عن النقباء الذين عليهم تسليم مختلف التعليمات وتبليغها ، ومختلف الحراس . وهؤلاء جميعاً حظوا ولا شك باهتمام خاص سواء من جانب السيد أو من جانب سكان القرية ، وبالتالي فقد كان لهم مكانة اجتماعية مرموقة كما تمتعوا بالكثير من المزايا .

٢ - الضيعة : جرى نظام الضياع في معظم إقليم القرى على نهج عام مألوف إذ احتفظ السيد بشر من الأرض في الحقول الصالحة للزراعة . وهذا الجانب الذي يبلغ عادة نحو ثلث مجموع الأراضي الزراعية ، اشتهر باسم الضيعة . والضيعة مؤسسة لإنجليزية خاصة بإنجلترا ، على أنها تستطيع

أن تكون قاعدة لتوضيح نواحي المجتمع الأوربي الغربي عامة ، لأن الإقطاعية وما اشتملت عليه من زراعة اكتفائية ، وسيطرة الطبقة الحربية ، وتركيز السلطات والحقوق في مراكز محلية ، كل هذه ظواهر وضحت في جميع أرجاء أوروبا ، وأدت في فرنسا وألمانيا وإسبانيا إلى نتائج متشابهة وإن لم تكن متماثلة .

وبجانب الضيقة فقد احتفظ السيد لنفسه أيضاً بجانب من أرض المراعى . وتولى أهل القرية العمل في الضيقة من أجل السيد فقاموا ببذر التقاوى وزراعة الأراضي ، وجنى المحصول ، وقطع الدريس ، وأدوا كل ما هو ضروري من سائر الأعمال ، فأشرف الرعاة بالقرية على ما لدى السيد من ماشية وخنازير وإذا أراد السيد أن يقوم بحفر خندق حول قلعته ، أو تشييد سور لحفظ الغزلان في جانب من أرض الغابات التزم أهل القرية بالقيام بهذا العمل .

والخلاصة أنهم جعلوا ثلاثة أيام في الأسبوع لخدمة السيد ، غير أنه يجوز للسيد أن يحتاج لخدماتهم مدة تزيد على ذلك .

ويؤدى أهل القرية للسيد من الإيجار ما هو عبارة عن نسبة معينة من المحصولات التي يزرعونها بأراضيهم الخاصة . يضاف إلى ذلك أنهم مدينون له بطائفة متنوعة من الرسوم مقابل ما استخدموه من موارد أراضي القرية . ففي مقابل رعى ماشيتهم أدوا للسيد الجبن ، وفي مقابل السماح لخنازيرهم بالانسياب في الغابات قدموا له عدداً معيناً منها ، وإذا اصطاد أهل القرية السمك من غدير أو مستنقع حصل السيد على جانب من صيدهم .. وهكذا .

كما يقوم أهل القرية مقابل سكنهم بالعمل في ضياع السيد ويؤدون طائفة متنوعة من المقررات المختلفة مقابل ما حصلوا عليه من امتيازات .

ثم أضفى للسيد بعض الاحتكارات المثمرة .. فالسيد يمتلك عادة

طاحوناً ونحتم على أهل القرية أن يطحنوا به حبوبهم . ومن الجرائم الخطيرة امتلاك طاحون من غير إذن السيد . ويتقاضى السيد مقابل الطحن جانباً من الدقيق . والسيد أيضاً حق الإشراف على الأفران التي يصنع بها الخبز ويتقاضى عن ذلك أجرة . والسيد وحده هو الذي قام بتربية الحمام في معظم أنحاء فرنسا ، ويققات الحمام على محاصيل الفلاح على حين أن السيد وحده هو الذي يأكله .

والسيد أيضاً محكمة يتقرر بها لإزالة العقوبة بكل من يخالف قوانين القرية . وإذا حاول رجل أن يغفل العمل المكلف بتأديته السيد . فإذا أهمل الراعي الخنازير ، أو إذا سرق القروي تفاحاً من حديقة السيد أو إذا جرى ضبط شخص يستخدم طاحوناً يدوياً ، تقررت محاكمته في محكمة السيد ، وحل به العقاب . وكانت محكمة السيد تنظر في جميع أنواع الجرائم . وفي هذا الصدد يجب أن نذكر أنه خلال العصور الوسطى نشأت ثلاثة أنواع رئيسية من المحاكم ، وهي :

١ — محكمة العرف والعادة . ٢ — محكمة السيد الإقطاعي .

٣ — محكمة الشؤون الملكية . ولكل من هذه المحاكم اختصاصاتها حسب نوع الجريمة ومكانة مرتكبها الاجتماعية . وللولاية القضائية أهمية من عدة نواحي ، منها أنها ثمرة ومبرجة ، ففي القضايا الصغرى تقرر فرض جزاءات نقدية ، وإذا تقرر شقن رجل ، استولى السيد على كل موجوده ومتماعه ، فازدادت بذلك سلطة السيد على رعاياه ، وارتفع شأنه ، خاصة وأنه كان يقف حائلاً بين أهل القرية أو الضيعة وبين الحكومة المركزية .

والواقع أن السيد عاش كأنه ملك في إقطاعه ، لكنه ملك مقيد بدستور عرفي وحقوق قائمة على اتفاق تماقدي . ومن الخطأ أن نزع أن مصالح الكثرة وحقوقها كانت تهدر في سبيل مصالح الأقلية الحاكمة وحقوقها ،

أو أن تتصور أن الضيعة لم تكن سوى أرض تزرع وتستغل من أجل السيد الإقطاعي وتدار وفق رغبته ورغبة أعوانه . والواقع أن الضيعة هيأت أقرب التنظيمات وأكثرها ملاءمة للعمل والكسب في تلك الأزمنة .

ومن أوضح الحقائق الثابتة في الحياة الاقتصادية في الضيعة الإقطاعية هو ازدواج الجهاز المحرك لها ، إن صح هذا التعبير . ذلك أن الضيعة تكونت من مجتمع قروي له حكومة ذاتية ، ومن إدارة إقطاعية مفروضة فرضاً على هذا المجتمع القروي . وقد هدفت الزراعة الاكتفائية الإقطاعية دائماً لتحقيق غايتين متلازمتين ، وهما : إمداد المجتمع القروي بأسباب العيش ، وإمداد السيد الإقطاعي بأنواع الربح . ومن هنا تطلب تحقيق هاتين الغايتين هذا الازدواج ، أي المجتمع القروي والإدارة الإقطاعية .

ثانياً : مرحلة ازدهار النظام الإقطاعي

لم يكن نمو وتحديد حقوق وواجبات السادة والأنباع إلا عملية طويلة بطيئة استغرقت ما يزيد على ستة قرون ، ابتداء من القرن الخامس حتى القرن الثالث عشر . ويصح أن نعتبر الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر هي الفترة التي اكتمل فيها نمو النظم الإقطاعية وتطورها ففي أثناء هذه الفترة شاعت النظم الإقطاعية في أوروبا وانتقل النظام الإقطاعي عن طريق الحروب الصليبية إلى مملكة بيت المقدس والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .

حقوق وواجبات كل من السيد والتابع

يقوم العقد الإقطاعي أساساً ، كما قدمنا ، على ركنين أساسيين هما :
يمين الولاء من جانب التابع ، والتقليد أو بذل الإقطاع من جانب السيد .
ومن هذه القاعدة تفرع كل ما يتصل بحقوق وواجبات كل من السيد والتابع إزاء بعضهما البعض ، فالسيد أيضاً يتعهد بالإخلاص لتابعه مثلما يتعهد التابع بذلك لسيد . وقد أوجز لنا الأستاذ فينو جرادوف وواجبات التابع نحو سيده بأن قسمها إلى :
الواجبات السالبة : أن يتعهد التابع ألا يشن غارة على سيده أو يفشي له سراً أو يعرض قصوره لخطر أو يسيء إلى سلطته القضائية أو شرفه أو أملاكه أو يقيم عقبات تمرقل أو تفسد طريق أعماله .

أما من الناحية الإيجابية : فتعين على التابع تقديم واجبات النصيح والمساعدة *Consilium, Auxilium* لسيد الإقطاعي . والصورة الأساسية لتقديم النصيحة هي حضور التابع محكمة السيد الإقطاعي ،^(١)

(١) راجع : فينو جرادوف ، المرجع السابق ص ٩١ .

والعقد الإقطاعي كانت له قدسية خاصة فهو يقوم باختيار الطرفين ، ومتى ثم فلا يصح نقضه من جانب واحد إذا جرى تنفيذه فعلاً^(١) إلا في بعض الحالات الاستثنائية مثل تلك التي أوردها شارلمان في أحد مرسوماته والتي تبيح للتابع أن يتخلى عن سيده وتتلخص في أنه يجوز له ذلك في الحالات الآتية :

١ — إذا حاول أن يقتل التابع بالتأمر عليه .

٢ — إذا حاول أن يضربه بعضا .

٣ — إذا حاول اغتصاب زوجته ، أو ارتكب الفاحشة معها .

٤ — إذا حاول اغتصاب ابنة التابع .

٥ — إذا حاول أن يجعل منه قناً .

٦ — إذا انقض عليه وأشهر سيفه في وجهه .

٧ — إذا لم يدافع عنه كما ينبغي .

كذلك وجد ما عرف « بحق الإنكار » أي أن يخرج التابع عن طاعة سيده في حالة إخلال السيد بالعقد الإقطاعي . وعلى أساس هذه النظرية استندت المحاولات الاستقلالية الإقطاعية التي قام بها بعض مشاهير البارونات ضد سادتهم من الملوك . ومثال ذلك ما أقسم به بارونات أراجون وإسبانيا للملكهم بأن يكونوا في طاعته وخدمته طالما حافظ هو من جانبه على الحقوق والعادات والتقاليد والقوانين السائدة في المملكة ، وإلا فلا طاعة له عليهم .

ولكن هذه على أية حال كانت حالات قليلة ، أما الغالب فكان

احترام وتنفيذ العقد الإقطاعى من جانب السيد والتابع على حد سواء ، ولا ينقض عقد التبعية عادة إلا وفاة السيد أو التابع .

وما هو مطلوب من التابع من الخدمة أخذ يتحدد ويتخصص ، فالواضح أن أتباع الملك جرى استخدامهم لتأدية أعمال سياسية وقضائية وإدارية . ولا شك أن أتباع الكونتات يؤدون من حين لآخر أعمالا من هذا القبيل ، إذ أنهم يؤدون أعمالا خاصة فى دار سيدهم أو فى إدارة ضياعه شأنهم فى ذلك شأن أتباع الكنيسة وسائر الناس .

على أنه حدث زمن شارلمان أن صار لما هو مطلوب من التابع من الخدمات الحربية الأسبقية على سائر الأعمال . وحفلت مرسومات شارلمان بتفاصيل هذه الخدمات . والمعروف من الناحية النظرية أن التابع لا يؤدى ما هو مطلوب منه من التزامات إلا حين قيام سيده على خدمة الملك ، غير أنه من الناحية العملية حدث منذ عهد لويس التقي ابن شارلمان أن خرج السادة أتباع الإمبراطور على طاعته وقادوا أتباعهم لقتاله . وما تردد من الألفاظ الدالة على الخضوع والإذعان وندرة الأسباب التى تدعو التابع إلى التخلل عن سيده ، وإلزام التابع بالآى يلجأ إلى سيد آخر ، يؤكد ما يصح أن نسميه « تسلط السيد واستبداده » ، فللسيد نوع من السيطرة على التابع . على أنه من ناحية أخرى لا بد أن ندرك أن التابع برغم خضوعه للسيد لا زال يعتبر فى نظر القانون حراً ، ومن حقه أن يتمتع بأهم امتيازات الحرية بأن تجرى محاكمته أمام المحاكم العامة . ومهما يكن للسيد فى بعض الأحوال من السلطة التى يلزم بها أتباعه بتأدية أعمال خاصة كأن يقوموا بأعمال مرهقة أثناء الخدمة العسكرية فلا تجرى محاكمتهم أمام محكمة خاصة . ومع ذلك فإن محكمة الملك تعتبر محكمة عامة ويتولى رئاستها الملك على أنه سيد لأتباعه .

وعلى الرغم من أنه حدث فعلا زمن الكارولنجيين ما يصح أن نسميه

« قدسية التبعية » التي تعتبر ضرباً من الالتزام الروحي الذي غرس في عقول عدد كبير من الناس فكرة شدة الإخلاص الذي يدين به التابع للسيد وأكده هذه الفكرة ما انطوت عليه يمين الإخلاص من صفة دينية ، فالواقع أنه حدث في القرن التاسع ما يشير إلى أن أتباعاً تخلوا عن سادتهم أو كشفوا عن خيانتهم لحرصهم على جمع المال والحصول على إقطاعات جديدة .

والمعروف أن الوفاة تنهى عقد التبعية وما يتعلق به من منح الإقطاع غير أن للتابع أن يلجأ إلى وريث السيد فيحصل منه مرة أخرى على الإقطاع الذي سبق أن حازه . ويصح أيضاً أن يتقدم الولد أثناء حياته إلى السيد بأن يخلفه ابنه في الإقطاع .

والواقع أن عقد التبعية الذي تطلب التزام الخدمة ، يعتبر المظهر الأساسي للعلاقات الإقطاعية فلم يتقرر بذل الإقطاع إلا لتأدية الخدمة المقررة على أحسن وجه ووفقاً لمساحة الإقطاع وطبيعة أرضه . وبناء على عقد التبعية صار للسيد السلطة المباشرة على شخص التابع ، ولم يقيد هذا الحق سوى أنه ينبغي ألا تجرى ممارسته في صورة تدعو إلى الخط من مكانة التابع باعتباره رجلاً حراً ، أو تضعف ما يدين به التابع من الولاء والطاعة للملك باعتباره من الرعايا .

وما للسيد على التابع من السلطة يصح أن نذكرها فيما يئذه التابع للسيد من الطاعة والاحترام . ومن مظاهر الاحترام أن يمسك التابع بركاب الفرس حين ينهض السيد لركوب الفرس ، وأن يصحبه في المواكب ، وأن يؤدي له بعض الخدمات الشرفية .

وللسيد أيضاً بعض الحقوق التي نشأت من طبيعة العقد الإقطاعي . فلا يجوز للتابع أن يزوج ابنته إلا بعد موافقة السيد . فإذا تزوجت البنت

نقلت معها جانباً من إقطاع أبيها على أنه بান্তة زواجها . فإذا كان من المعروف أن الزوج سوف يسيطر على الأرض التي حازها التابع من السيد فللتابع الحق في أن يتأكد من أن الزوج ليس من أعداء السيد .

وإذا مات التابع تاركاً وراءه ابنة وريثه له ، أو ابناً لم يبلغ سن الرشد ، فلا سيد الحق في أن يصر على أن يتولى شخص رشيد القيام بما هو مقرر على الإقطاع من الخدمة . فإذا كانت الابنة في سن الزواج اختار لها السيد زوجاً ، أو عهد إلى شخص بالغ عاقل بالقوامة على الوارث صغير السن .

وما هو مفروض على السيد من التزامات يطابق ما يؤديه التابع من خدمات ، فيتحتم عليه ألا يتخذ من الوسائل ما يلحق الأذى بحياة التابع ، أو يخذش شرفه أو يضر بأمله ، وأن يظهر نحو التابع المودة والعطف . كما يلتزم السيد بالدفاع عن تابعه في ساحة القضاء ، بل وفي محكمة الملك .

ويساعد السيد أيضاً تابعه بما يسديه له من النصائح ، في أن يلتزم التابع في سلوكه وتصرفاته العدالة والإنصاف . يضاف إلى ذلك أنه إذا منحه إقطاعاً ضمن له السيد حيازته وامتلاكه ، بأن يتكفل بحمايته والدفاع عنه .

الخدمة الحرة :

وما يؤديه التابع للسيد عادة من الخدمة يقصد بها في هذه المرحلة من العصر الإقطاعي الخدمة العسكرية *Servitium Militis* ولا شك أن التابع كان أول الأمر يؤدي للسيد ما شاء من الخدمة العسكرية في معظم الأحوال ولفترات طويلة . غير أنه بمضي الزمن أخذ الاتباع يفرقون بين أنواع مختلفة من الخدمة العسكرية ويقصرون واجباتهم على طائفة منها . فإذا تعرض إقطاع السيد للغزو من قبل أحد الأعداء فمن الواضح أن يلتزم الاتباع بالنبوض

لمساندته حتى يزول الخطر . أما إذا هاجم السيد أحد جيرانه فيعتبر ذلك أمراً آخر . ولم يكديستهل القرن الثاني عشر حتى تحددت التزامات الأتباع في حرب من هذا القبيل . فأنهم قاعدة سادت منذ منتصف القرن الحادى عشر هى أن التابع يلتزم بخدمة السيد أربعين يوماً على نفقته الخاصة ، وفيما زاد على هذه الفترة تكفل السيد بنفقات التابع ومثونته .

ومن مظاهر الخدمة الحرية أيضاً حراسة القلاع ، التى تنطوى على تأدية الواجبات فى إحدى قلاع الملك ، وعلى التابع فى بعض الأحوال أن يجعل قلعته تحت تصرف الملك يحل فيها كيفما شاء^(١) .

وفى بعض الأحوال يصح الاستعاضة عن الخدمة الحرية ببذل أموال تعرف « بالبدل » . ففى إنجلترا أجازت الملكية فى عصر مبكر دفع بدل نقدى عوضاً عن الخدمة الحرية . والواضح أن ما يتحصل من أموال من هذا البدل هياً للوك أن يستأجروا جنداً أطوع لهم وأكثر إخلاصاً من الجند الإقطاعية . على أن القاعدة فى فرنسا وألمانيا هى أن الخدمة الحرية سادت فى هذين الإقليمين .

على أن مسئولية التابع لم تقف عند حد الخدمة الحرية ، بل تحتم عليه فى أحوال معينة أن يقدم لسيد العون والمساعدة ، وهو ما يعرف باسم Aid ، وشملت هذه المساعدة عوناً مالياً يقدم للسيد فى حالة الضيق وشدة الحاجة . غير أن هذه المساعدات لم تتحصل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلا فى أحوال نادرة ، ولم تلبث أن تحدت الحالات التى تؤدى فيها المساعدة للسيد ، عند اقتداء السيد حينما يقع أسيراً ، وزواج ابنته الكبرى ، وتنصيب الابن الأكبر فارساً . ويصح أن يضاف إلى هذه الأحوال الخروج فى حملة صليبية ، أو التوجه إلى البلاط الملكى ،

أو القيام بعمل استثنائي . وينبغي على التابع أن يقوم بضيافة سيده ، فكلما قدم السيد لتفقد أحواله حرص التابع على أن يوفر له أسباب التسلية .

وإذا احتاج السيد من الخدمة الحرية أو العون المالى مايتجاوز مايلزم به الأتباع فلايسعه إلا أن يطلب إليهم أن يذللوا له طواعية مساعدة ومنحة . وليس من حقه أن يفرض عليهم ضريبة إلا بمقتضى مايمحده العقد الإقطاعى .

المشورة : هى إحدى الخدمات الرئيسية المطلوبة من التابع للسيد . ففى ظل النظام الإقطاعى التزم التابع بأن يقدم المشورة لسيده ، وهى تسير على قدم المساواة مع تقديم المساعدة . ولما كانت هذه المشورة من مظاهر الخدمة فإنها تطلبت من التابع أن يقدم إلى سيده حينما يدعوه ، فكل تابع مسئول عن الحضور شخصياً إلى مجلس السيد وعلى نفقته الخاصة . وهذه الحقيقة هى التى جعلت لفظ *Consilium* يطلق على المجلس الذى يتشاور فيه السيد مع أتباعه . ويقدم التابع لمناسبات مختلفة كأن يشهد الاحتفال بزواج ابنة السيد أو تنصيب ابنه فارساً ، أو الاشتراك فى استقبال زائر كبير ، أو لىكى يستشير السيد أتباعه فى أمر حرب أو عقد معاهدة . كما جرت العادة أن يستدعى السيد الأتباع للتصديق على قانون من قوانين الحكومة أو يؤلف منهم محكمة . وليس للسيد سلطة تحكيمية فى التشريع فالقانون ليس إلا العرف السائد بالإقليم ، وهو غير مسطور فكل مايتعرض له من تغيير أو تجديد يتولاه مجلس السيد أو بلاطه ، فالأتباع هم الذين يعلنون القانون الذى يخضعون له وإذا ارتكب أحدهم ذنباً خضع لحكم أسويائه .

ومن أهم خصائص القضاء الإقطاعى إجراء المحاكمة عن طريق القتال ، أو صدور الحكم بالحيانة . فإذا حدث النزاع على أرض أو جرى اتهام شخص باغتيال شخص آخر دون مبرر تخلت المحكمة الإقطاعية للتقاضين

بتسوية النزاع بينهما عن طريق القتال فإذا حلت الهزيمة بأحدهما تعرض للعقوبة التي نص عليها القانون الإقطاعي . وكل عمل لا يليق بالسيد الإقطاعي يعتبر من قبيل الخيانة ومن أمثلة ذلك رفض التابع أن يؤدي ما هو مقرر عليه من الخدمات ، فإذا تغيب عن جيش السيد ، أو تكرر منه إغفال القدوم إلى محكمة السيد فللمحكمة أن تعتبره متمرداً وتجري مصادرة إقطاعه .

على أنه يصح في بعض الحالات أن يتحدى التابع سلطة السيد ، بأن ينكر يمين الإخلاص الذي بذله لسيدته على أساس أن السيد هو الذي نقضه ومن الطبيعي أن تنشب الحرب تبعاً لذلك .

ونستخلص مما سبق أن الحياة الإقطاعية التي ينالها التابع يحصل السيد من وراثتها على ما يأتي :

- ١ — التبعية والإخلاص .
- ٢ — الخدمة التي يقدمها الفارس .
- ٣ — المساعدات الإقطاعية .
- ٤ — الضيافة .
- ٥ — ما يرفع للمحكمة من قضايا وما يترتب عليها من رسوم .
- ٦ — النتائج التي تترتب على ما يتعرض له الإقطاع من أحداث مثل بذل الحلوان ، الوصاية ، الزواج ، المصادرة ... الخ .

التبعية الاكليريكية : المعروف أن الغرض من بذل الإقطاع هو أن يفيد منه صاحبه في التجهز بالجنود والخيل والأسلحة ، وسائر الأشياء النافعة ، وأن ما يناله رجال قصر الأمير من إقطاعات يقابل ما يضطلعون به من

واجبات رسمية . إلا أنه يصح أن تحوز الكنيسة إقطاعاً لتستعين به في مباشرة الشعائر . على أنه يصح التساؤل هنا : كيف صار رجال الدين أتباعاً يؤدون واجب التبعية ، الذى يعتبر فى جوهره علاقة حرية ، على حين أن القانون الكنسى يحرم سفك الدماء ؟

الواقع أن هذا المنع جرى التغاضى عنه فى القرنين التاسع والعاشر ، فلم يكثف الأساقفة ورؤساء الأديرة بحيازة الإقطاع وبذل التبعية ، بل شاركوا فى القتال شأن سائر الأتباع . وأشدت أنشودة رولان بما لقيه رئيس الأساقفة تبرين من الاستشهاد فى ساحة القتال . ومع ذلك فإن البابوية التى نهضت فى القرن العاشر فى الوقت الذى ألفت فيه هذه القصيدة قامت بحملة لتخليص الكنيسة من السيطرة الدنيوية ، وأرغم المصلحون الأمراء على أن يقبلوا تعديل القانون الإقطاعى . وماحدث من نزاع على التقليد العلمانى انتهى إلى الاتفاق على أن يكون للسيد الإقطاعى الحق فى أن يمنح رجال الكنيسة الإقطاعات ، ولم يجعل للكنيسة إلا حق تقليد رجالها بشارات الوظيفة السامية . على أن القاعدة السائدة هى أن رجل الدين ينفى أن يمتنع عن الاشتراك فى القتال . وماهو مطلوب من الخدمة الحربية عن الإقطاع الذى يحوزه يصح الوفاء به بتجزئة الإقطاع^(١) الذى يحوزه . على أنه يعنى شأن سائر الأتباع فى تأدية الأتباع فى تأدية المساعدات ، والضيافة ، وحضور محكمة السيد ، غير أنه لا يشترك فى الأحكام الصادرة بالإعدام أو التنكيل والتتيل بالجاني .

إزالة الغابات وإصلاح الأراضي : المعروف أن القرن الحادى عشر يعتبر

(١) تجزئة الإقطاع وهى المعب عنها بكلمة Subinfeudation معناها أن يقوم التابع بتقسيم إقطاعه إلى أجزاء يمنح كل جزء منه إلى تابع آخر فى نظير أن يؤدى هذا التابع الجديد الخدمة العسكرية نيابة عن التابع الأول أو جنباً إلى جنب معه . وبهذه الطريقة أمكن لرجال الكنيسة أن يجدوا من يقوم عنهم فى تأدية الواجبات الحربية المطلوبة .

بداية لظهور حركة بالغة الأهمية ، وهى حركة قطع الأشجار وإزالة الغابات واستصلاح أراضيها ليتمكن زراعتها ، فلم يكن الغرب معروفاً دائماً بكثافة سكانه ، ففى إنجلترا الأنجلوسكسونية ، والإمبراطورية الكارولنجية من الغابات الكثيرة والمستنقعات مالم يجعلها مأهولة بالسكان . وترتب على عصر غارات الفيكينج ، والفوضى الداخلية الشاملة أن ازدادت مساحة الأرض الجرداء . ففى فرنسا صار معظم القرى مهجورة ، وتحولت أراضيها إلى غابات وشهد القرن الحادى عشر بداية حركة ضخمة لإصلاح الأراضي . على أن جانباً كبيراً من هذه الحركة اهتم بتنظيمه السادة الذين دفعهم الأمل فى الثراء والرغاء إلى الحرص على استغلال الإقطاعات ، فلم يكن يربط باريس بأورليان فى أوائل القرن الحادى عشر إلا رقعة ضيقة من الأرض غير مأهولة بالسكان ، فأقام سادة هذا الإقليم ، وهم ملوك فرنسا ، قرى جديدة ، وشجعوا الناس على الإقامة بها وسار سادة آخرون على نهج هذه السياسة فتحولت جهات من الغابات إلى أراضي زراعية خصيبة .

ولهذه الحركة أهمية كبيرة من نواحي عديدة ، فازداد عدد السكان ، وتزايد إنتاج الأرض ، وتوافر خراج السادة الإقطاعيين ، بل إنها أصلحت أحوال الفلاحين . ففى سبيل اجتذاب مستوطنين جدد لجأ السادة إلى بذل شروط مغرية فصار النزلاء الجدد بهذه الأراضي الجديدة أكثر ثراء ورغاء من أولئك الذين أقاموا بالقرى القديمة .

وهذه الحركة الكبيرة لإصلاح الأراضي ظلت مستمرة فى طريقها ما يقرب من قرنين من الزمان اتخذت أثناءهما سبلا ووسائل مختلفة ، فتولت الأديرة الكبيرة تخفيف المستنقعات وقطع الغابات ، وقام السادة العلانيون بمثل هذا العمل . غير أن جانباً كبيراً من العمل لم يتجاوز حداً ونطاقاً صغيراً بأن استأذن بعض الفلاحين سادتهم فى إصلاح مساحة صغيرة

من الأرض وقاموا بزراعتها ، وأخذت أراضي زراعية جديدة تظهر على أطراف الغابات الإنجليزية الكبيرة ، وبعض آثار هذه العملية فلبس أحياناً في أسماء الأماكن الحديثة ، كالأسماء التي اقترنت بلفظة New مثل Newcastle وهكذا .

وترتب على هذه الحركة الإصلاحية الكبيرة أن اتسع نطاق الزراعة في العصور الوسطى ، ونجم عن نمو المدن وظهور الاقتصاد النقدي نتائج عميقة الأثر .

صورة عامة للحياة الاجتماعية

في المجتمع الإقطاعي

نتناول في هذه الملحة عن الحياة الاجتماعية في أوروبا في العصور الوسطى في ظل النظام الإقطاعي ، نقطتين على جانب كبير من الأهمية : أولاهما تتعلق بموضوع الفروسية ذلك النظام الذي نبت وترعرع وآتى ثماره في ظل الإقطاع ، وما يتصل بالفروسية من أنواع هذه الفروسية ومبادئها وإيمان الفارس وأثر الكنيسة في توجيه هذا النظام والاستفادة منه لخدمة أغراضها . وأما النقطة الثانية فتتعلق بكل ما يتصل بمستوى الحياة ومركز المرأة في المجتمع ، وما تفرع عن ذلك من اهتمام عظيم بالأدب والشعر خاصة شعر الغزل وملاحم المآثر وظهور شعراء التروبادور... الخ .

أولاً - الفروسية :

ارتبطت حياة أبناء الطبقة الإقطاعية بالإعداد للقتال وممارسة مهنة الحرب ، ونظراً للاعتقاد بأن والدى النبيل الصغير يسرفان في تدليله جرت العادة بأنه متى بلغ السابعة أو الثامنة من عمره تقرر إرساله بعيداً عنهما

لكى ينشأ ويتربى في دار أمير إقطاعى آخر هو فى معظم الأحوال السيد الإقطاعى للأب أو أقرب الناس إليه فيتعلم الصبى الاهتمام بأدوات الحرب والتدريب عليها ويمارس من الحياة الحثثه ما يعتبر خير وسيلة لإعدادة لحياته المقبلة باعتبارة فارساً . فإذا ثبت أنه أضحى مستعداً لأن يتخذ موضعه فى المعركة ويجرى ذلك عادة حين يبلغ العشرين أو الحادية والعشرين من عمره تقرر تقليده السلاح فى احتفال مهيب بأن يركع أمام فارس مجرب ويتلقى ضربة من صفحة السيف . وكانت هذه الضربة قديماً فيما يبدو بالغة العنف والمقصود منها قهره إذا وجد إلى ذلك سبيلاً ، ثم أصبحت فيما بعد ضربة رمزية خفيفة تقع على الكتف وهذا الاجراء هو المعروف (بتنصيب الفارس) ومتى تقلد الشاب سلاحه وتلقى الضربة أضحى فارساً كاملاً . وليس فى استطاعة الملك أن يتولى الحكم ، وليس فى وسع وريثه أن يباشر إقطاعه مالم يتم تنصيبه فارساً لأن ذلك يعتبر دليلاً على بلوغ سن الرشد .

ويعضى الفارس معظم وقته فى القتال ومعالجة الأسلحة وممارسة الصيد ولما ازدادت قوة أمراء الإقطاع وتطلب حرصهم على توفير قدر كبير من الأمن والسلام فى بلادهم الإقلال من الحروب الإقطاعية ، أقام النبلاء معارك فكاكية اتخذت اسم المنازلات Tournements فالسيد الكبير الذى أحسن أن الحياة أضحى جافة بالغة الهدوء يرسل دعوة إلى الجهات المجاورة يعلن فيها قيام حفلة مبارزة فى يوم محدد فينتقسم الفرسان القادمون إلى فريقين وتجرى بينها معركة حامية . والفروق بين هذه المبارزات وبين المعارك الحقيقية هى أن يجرى بها تقديم القادمين وتجهيز الفرسان أنفسهم بالسلاح وحرص المتبارزين على التماس الأمن والسلامة ولا يجرى حبس من يقع فى الأسر منهم بل يدفع فدية يصح أن تكون عبارة عن قرية أو قلعة منيعة .

وفى أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر نبت من وثىة الطبقة الإقطاعية وأسلوب حياتها طائفة من الأفكار الأخلاقية تتمثل فيما نسميه (فروسية) وهى الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها الفارس ولذا يحسن أن نشير إلى ثلاث أنواع من الفروسية :

١ — فى الفروسية الإقطاعية من الطبيعى أن تنمو الأفكار الأساسية من أسلوب الحياة التى يعيشها النبيل الإقطاعى .

٢ — أما الفروسية الدينية فإنها تمثل مفهوم الكنيسة عن الفارس المثالى .

٣ — والنوع الثالث من الفروسية هو ما يمكن أن نسميه (بالفروسية الاجتماعية) والتى كان للمرأة الدور الرئيسى وفى قيامها ، وساعدها على النمو والتطور مساهمة الرجال فيها بتطبيق الأفكار التى جرت حول عشق الفرسان .

فالمحاربون الجرمان جلبوا معهم إلى أراضى الإمبراطورية الرومانية الإعجاب بفضائل المحارب مثل الشجاعة والاقدام فى المعركة وقدروا أيضاً الحكم السديد الذى اشتهر فيما بعد بالإخلاص وهم بهذا إنما أوجدوا صفات أصيلة لم يكتسبها نبلاء الفرنجة ومن اليسير أن يدرك أهميتها عند الشعوب الجرمانية كل من يطالع أساطير الشماليين وآداب الانجلىز السكسون . على أن وجه الغرابة هنا هو ما حدث من تطبيقها أيضاً على المجتمع الإقطاعى . فالرجل الذى جعل القتال مهنته الأولى لا بد أن يكون بأسلا شديد البأس فى المعركة . على أن القائد البارع انصف أيضاً بالرزانة والحكمة والتعقل فتوقف بناء المجتمع الإقطاعى بأكمله على احترام ما يصدر عن الشخص من عزم الولاء أو الإخلاص التى تعتبر من أهم الفضائل الإقطاعية وتعتبر أيضاً

أساس الفروسية الإقطاعية^(١).

وأندم الصفات الأخلاقية عند الطبقة الإقطاعية ترتبط بمهمتهم الأصلية ولم يكن الغرض منها سوى أن تجعل الحرب أكثر قبولاً عند المشتركين فيها، وعلى الرغم من اتخاذ الفرسان الدروع لحمايتهم فإن الفارس لم يكن بنجوة من هجوم مفاجئ. من قبل عدوه قبل أن يتم إرتدائه عدته ، ومن ثم نشأت الفكرة بأنه لا يجوز مطلقاً مهاجمة فارس غير مسلح بل ينبغي أن يتوافر له من الوقت ما يكفي لارتداء درعه وتجهيزه للقتال .

ونشأ أيضاً العرف الذي يعتبر الأسير ضيفاً عزيزاً فقد يحدث في وقت من الأوقات أن يظهر بأسره . والخطوة التالية هي قبول ابن الأسير أو ابن أخيه رهينة إلى أن يقوم الأسير بجمع فديته . وفي القرن الثالث عشر جرت العادة بإطلاق سراح الفارس لجمع الفدية على أن يعد بالعودة إذا لم يوفق في جمعها .

ومن فضائل الفروسية التي تستحق الذكر والتنويه فضيلة السخاء ففي معظم المجتمعات شاد الناس بمن يجود بالعطايا وقد كانت هذه من صفات الجرمان البارزة وصار لها أهمية في القانون الإقطاعي للفروسية . وعلى الرغم من أن مفاهيم الفروسية الإقطاعية نبتت من البيئة الإقطاعية فإن المحترفين من رواة القصص لجأوا إلى تبسيطها وإذاعتها بين سائر الناس . فالأمسيات تمنى ثقيلة بطيئة في القلاع الظلمة ويشد شخف الفرسان والسيدات إلى التسلية فتولى تقديم هذه المتعة فئات مختلفة من المترددين على القلعة فمنهم رواة القصص البذيئة وأرباب الدية الراقصة والجواري الراقصات ومنهم أيضاً الشعراء الذين يصوغون القصص الطويلة شعراً ويقومون بإلقائها ومنهم المنشدون الذين يغنون ما ألفه غيرهم من مقطوعات وقصائد

فانتشرت بهذه القصص أفكار الفروسية ومفاهيمها واعتمد المغنون والمؤلفون على سخاء سادتهم وجودهم ولذا فإن الكرم سار في قصصهم الفضيلة الأساسية عند الفرسان .

على أن أفراد الارستقراطية الإقطاعية اشتد تعلقهم بما يتلاءم مع جو العصر الذي يعيشون فيه إذ اعتنقوا جميعاً فيما عدا بعض حالات نادرة تعاليم الكنيسة المسيحية فإذا ارتكبوا إثمًا من الآثام لم يلبثوا أن يلتمسوا التوبة والغفران . فعلى الرغم من أن الصليبيين الذين نهضوا لقتال المسلمين في أسبانيا والشرق الأدنى لم تحركهم اعتبارات روحية خالصة فلاشك أن الحافز الغالب عندهم لم يكن سوى الرغبة في الخلاص . يضاف إلى ذلك أن كل إقطاع مهما تضاءلت أهميته لابد أن تكون به يعة أو دير واشتهرت الأسرات الإقطاعية الكبيرة بما قامت به من إنشاء أديرة عديدة ورعايتها فلكل سيد قيس خاص ولكل قلعة إقطاعية كنيسة خاصة . على أن نسبة كبيرة من خراج معظم الإقطاعات خصصت لأغراض دينية . وفي القرن الثالث عشر تضاءلت أهمية باونيات كبيرة بسبب ما اشتهر به أربابها أجيالا عديدة من السخاء في إغداقهم على الكنيسة .

وقد حاولت الكنيسة طوال الفترة التي تطور فيها النظام الإقطاعي أن تحد من الحروب الإقطاعية وأن تحول جهود الفرسان إلى ما اعتبرته سيلا أكثر فائدة وأعم نفعاً . واشتدت الكنيسة في الدعوة إلى مذهبها الرسمي وفي الحرص على أن تنال نصيبها من الغنيمة في الحرب . وفي القرن الحادى عشر قررت الكنيسة ما يعرف بهدنة الله أو الهدنة المقدسة Tregua Dei والسلام الإلهي أو السلام المقدس Pax Dei وهى الفترات التي يتحتم فيها تحريم القتال . والراجع أنه استقر في أذهان رجال الكنيسة فكرة تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين . ثم حدث في القرن الثانى عشر أن أخذ الكتاب الكنسيون وأشهرهم حنا سالبورى في تنمية فكرة

الكنيسة عن الفارس المثل أن يكون مسيحياً قتيماً غرضه الأساس أن يحمي الكنيسة ويدافع عن عقيدتها وينكر الجرائم على اختلاف أنواعها ويرعى الضعفاء والعجزة . وفي سبيل تدعيم دعواها لجأت الكنيسة إلى عرض النظرية التي تجعل الفرسان يؤلفون طائفة مثل طائفة رجال الدين فالفراس اختاره الله ليقاتل في سبيله ، وشجع رجال الدين استخدام الطقوس الدينية في تنصيب الفتى فارساً وأقاموا لهذا الغرض شعائر خاصة . وما لدى الكنيسة من مثل عن خلق الفارس جرى تفسيرها وشرحها في رسائل وعظات ومأثورات أدبية .

ثانياً - مستوى الحياة ومركز المرأة في المجتمع :

تعتبر حياة الطبقة الإقطاعية من الناحية المادية بالغة الشدة والقسوة فالقلاع شديدة الرطوبة معرضة للهواء فإذا كانت القلعة من الخشب لا يجرى فيها شيء من التدفئة وإذا كانت مشيدة من الحجارة فما تصاعد من الدخان منها يؤدي إلى الاختناق ولم يكن هناك حتى القرن الثالث عشر من يملك قلعة تزيد على حجرتين إلا عدداً قليلاً من كبار الأمراء . ففي القاعة الرئيسية يباشر السيد أعماله ويستقبل موظفيه وأتباعه ويعقد محكمته ويحيي ضيوفه ، وفي نفس القاعة تتناول الأسرة وحاشيتها الطعام على موائد مختلفة فإذا أتى الليل جرى استخدام هذه الموائد أسرة للخدم والضيوف والحاشية أما الحجرة الأخرى فيختص بها السيد وزوجته وأطفالها . وللسيد وأسرته أن يصيبوا من الطعام ما يشتهون غير أن هذا الطعام لم يكن منوعاً فالأطباق الكبيرة والتي تعتبر الأساسية مؤلفة من الطيور والحيوانات التي صادها السيد الإقطاعي ، يضاف إلى ذلك الخبز وكميات كبيرة من النبيذ وتوافر لديهم أيضاً الكساء غير أن نوع الكساء تحدد إلى حد كبير بكفاية ومقدرة الصانع .

والخلاصة أن النبيل في القرنين العاشر والحادي عشر كان له موردان :

الأرض والعمل. غير أن العمل لم يكن شديد الأثر كما أن الأرض قد ساءت فلاحتها ولم تأخذ الطبقة الاقطاعية في الاقتراب من الترف إلا عند إحياء التجارة .

واهتم نساء الطبقة الإقطاعية بممارسة الغزل والنسيج، والحياكة والإشراف التام على منزل السيد . والواضح أن المرأة دائماً كانت في رعاية الرجل سواء كان أباهاً أو زوجها. أما الأرملة فتعتبر في حماية سيدها أو ابنها الأكبر . وللرأة أن ترث الإقطاع غير أنها لا تديره إلا عن طريق زوجها، وذلك لأن مهمة الطبقة الاقطاعية تركزت في مباشرة القتال وليس للمرأة شيء من الحقوق لإزاء زوجها، وقد حاولت الكنيسة أن تحمي الزوجة ، غير أنها لم تستطع إلا فرض قيود ضئيلة في هذه الناحية ومع ذلك فإن الزوجة تعتبر سيدة القلعة والإقطاع في حالة غياب الزوج فيتحتم على أتباعه وموظفيه وخدامه أن يطيعوها .

وقد سبق أن أشرنا في أكثر من موضع إلى أهمية المرأة في الحياة الاجتماعية وبصفة خاصة ما يتفرع من هذه الحياة من نواحي ثقافية وأدبية فإذا تناولنا الآن جانباً من هذه الحياة في الشعر مثلاً نجد أن أفكار الغزل ظهرت لأول مرة في الشعر الغنائي الذي جرى تأليفه في النصف الثاني من القرن الحادى عشر فالرجال والنساء الذين أنفوا هذه القصائد اتخذوا اسم التروبادور . وقد اختلف الباحثون فيما إذا كانت أصول شعر التروبادور ترجع إلى بقايا الشعر التقليدى القديم التى احتفظ بها على أنها أغاني شعبية أو ترجع إلى شعر الغزل عند المسلمين في أسبانيا وأن كلمة تروبادور نفسها مأخوذة من الكلمتين العربيتين (دور) و (طرب) أو (دور الطرب) وذلك بعد تحريفها إلى تروبادور^(١) وكيفما كان الأمر فإن دعاء التسلية

والترفيه في جنوب فرنسا بالذات شرعوا في تأليف القصائد التي يمدحون فيها السيدات ويصفون ما يترتب على التشبيب بهن من الفوائد ولقيت الفكرة إستجابة من أكبر أمراء الإقطاع بالأقليم وهو ولیم التاسع دوق أكييتانيا فصار تأليف مقطوعات الغزل الغنائية أو على الأقل تقديرها هو النهج السائد في جميع أنحاء جنوب فرنسا ، ولم يكن حظ التروبادور من الأفكار قليلا وبسيطاً فالتشبيب بالسيدة أصلح الرجل في كل ناحية من نواحي حياته إذ جعل منه شاعراً بالغ الجودة وسيدا وفارساً شديد البسالة أما السيدة فجازت الإعجاب بفضل ما اشتهرت به من الجمال والركة والمرح والاذان والمتميم بالسيدة كان لا يفكر في شيء سوى العمل على إرضائها ، وجلب السرور لها فكان يركز أفكاره ومشاعره في سيدته .

ومعظم قصائد التروبادور وجهها إلى السيدات رجالا تكاد تكون مكائهم الاجتماعية وضيفة ومعظم من ألف القصائد من النبلاء إختاروا مجتمعات زملائهم من صغار النبلاء ومن ثم فإن شعر التروبادور لم يمدح المرأة فحسب بل جعلها فوق قاعدة عالية .

ولم يكن شعر التروبادور ظاهرة منفردة أو منعزلة إذ أن الفترة التي شهدت مولده وتطوره شهدت أيضاً نهوضاً شاملا في مكانة المرأة فريم العذراء التي احتلت فيما مضى مكانة متواضعة في الديانة المسيحية أضحت مع ابنها الشفيح الوحيد للذين من الرجال ، فالبايا الكبير أنوسنت الثالث ألف في صدر شبابه قصائد تروبادورية عن العذراء . ولم تلبث أفكار الغزل في القصور أن انتقلت إلى شمال فرنسا عن طريق حاشية اليانور دوقه إكييتانيا وحفيدة ولیم التاسع الشاعر التروبادوري وقد اشتهرت اليانور برعاية رجال الأدب على إختلافهم وسار على نهجها ابتناها ماري واليس . على أن رجال فرنسا ونسائها أعجبوا أكثر من غيرهم بشعر التروبادور .

ويتعلق بموضوع الفروسية أيضاً إلى جانب دراسة مستوى الحياة ودور

المرأة في المجتمع وما يتفرع عنه من دراسة الحياة الثقافية أن تلقى نظرة على الآداب التي تشرح الأفكار المتعلقة بالفروسية ، والفروسية الإقطاعية أحياءها ملاحم المآثر وهي قصائد طويلة تعالج قصة من القصص وتعرف بالملاحم والواضح أن هذه القصائد لم يكن مقصوداً بها الإقطاعيين فحواياتها الأساسية ليست إلا أخباراً لا حصر لها عما انطوى عليه النظام الإقطاعي من معارك وقصص فنسمع : كيف أن البطل مزق أعداءه لإرباً وكيف فاقهم في البلاط الإقطاعي .

واشتهرت بعض ملاحم المآثر بطابع ديني كأن يحارب البطل المسلمين وأن يكون راعياً لدير من الإديرة ومن أجل قصائد المآثر وأقدمها عهداً أنشودة رولان المعروفة التي تكاد تقتصر كلها على القتال والمكيدة غير أن القتال كان موجهاً ضد المسلمين . وخير ما يمثل الفروسية الدينية تمثل في الرسائل التي ألفها رجال الكنيسة أمثال حنا سالبوري وفي المواعظ وفي عدد قليل من القصص .

ثالثاً : مرحلة انهيار النظام الإقطاعي

رأينا كيف ظهر النظام الإقطاعي في ظل ما غلب على المجتمع من صفة الزراعة . وبفضل حيابة الإقطاع استطاع الأمير في أوائل العصور الوسطى الحصول على قوة مؤلفة من فرسان مدربين ، وأن يشعن قلاعه بالجنود وأن يسد حاجة الحكومة دون أن ينفق في ذلك أموالاً . غير أن الدولة التي غلب عليها الإقطاع خضعت لسلطان فئة أرباب الإقطاعات وكبار سادة الضياع الذين احتكروا لأنفسهم الثروة . فتمت انهار ذلك الاحتكار لم يعد للتدبير الإقطاعية أهمية مطلقاً . فإذا حصل الأمير على أموال من مصادر جديدة فمن الطبيعي أن يؤثر استئجار الجند والموظفين لكي يزداد سلطانه على الجيش والإدارة المدنية . فإذا أدركت الارستقراطية الإقطاعية عجزها وضعفها برغم معارضتها الشديدة لكل تغيير لم تلبث أن فقدت ما كان لها من سيادة حرية وسياسية . فتداعى النظام الإقطاعي وانهياره إنما يصح فهمه وإدراكه على اعتبار أنه مظهر للثورة الاقتصادية التي جرت في أوروبا في الفترة الواقعة بين القرن الحادى عشر والثالث عشر . ولم يكن قبل نهاية القرن الحادى عشر لىوجد سوق للمنتجات الزراعية لأن السيد صاحب الضيعة وأهل داره استهلكوا منتجات الضياع وما تبقى منها استقنفده الفلاحون ، فلما ظهرت المدن واستوطنتها التجار والصناع ظهر من الإنتاج ما يصح أن يفيض عن الحاجة إليه وترتب على ذلك أن ظهرت سوق للإنتاج الزراعى ، ومع ذلك فإن نمو هذه السوق لم يجر إلا بالتدريج ، فالمحلات التجارية الأولى التي نزل بها التجار لم تؤثر إلا في الجهات القريبة منها وكلما نمت المدينة وازداد عدد سكانها واتسعت مساحتها نشأت سوق كبيرة واشتد اهتمام أرباب الضياع والأتباع بها . والمعروف أن السيد لم يحفل فيما مضى بأن ينتج ما يزيد على استهلاك أهل داره أما الآن فصار في

وسعه أن يبيع هذا الفائض وأن يشتري بئمنه ما احتاج إليه من الأشياء واستطاع الفلاح أيضاً أن يبيع في هذه السوق الفائض عنده وبذلك بدأ دخول النقد في الاقتصاد الزراعى .

ثم حدث أن نزع السادة والأتباع إلى الاستعاضة عن دفع الرسوم نوعاً بأن تؤدي نقداً وفي القرن الحادى عشر ظلت إيجارات عديدة تحتفظ بأسمائها القديمة على الرغم من أنها تؤدي نقداً . فيؤدى الفلاح نقداً ما تقرر عليه فى الحقول المزروعة ويدفع مبلغاً معيناً من المال مقابل الرعى فى غابات السيد .

أما خدمات العمل فلم تتغير إلا فى عصر متأخر فى القرن الثالث عشر وكان ذلك لصالح الجانبين إذ كان السيد يحصل من المستأجرين على المال مقابل ما هو مقرر عليهم من العمل ، وبهذا المال يستأجر عمالاً يؤدون له ما شاء من الأعمال . وهذه عملية هامة استغرقت نحو ثلاثة قرون اعتباراً من القرن الحادى عشر وحتى القرن الرابع عشر .

واتصل بالتحول إلى النقد حركة أخرى بالغة الأهمية هى تحرير الرقيق فالمعروف أنه تم فى بعض الأحيان تحرير أفراد وأمرات من الرقيق ، كأن يكون الدافع لذلك ما اشتهر به بعض السادة من التقوى وأنه يرضى الكنيسة وتعاليمها بهذا الإجراء أو اعتقاده بأن ما يحصل عليه من ضرائب من القرية سيزيد بتحرير رقيقها ، غير أن الاعتبار المباشر للتحرير قام على أساس اتفاق يلتزم فيه العبد بدفع مبلغ كبير من المال على فترات معينة .

والراجح أن السيد رأى أن ما يحصل عليه من أموال بهذه الطريقة يزيد عما يجمعه من الضرائب . والواقع أنه من الناحية الاقتصادية كان الأمر خسارة على الفلاحين ، فإأحرزوه من حقوق بعد أن أصبحوا أحراراً لم يكن من اليسير الاستمتاع به ، فثلا يستطيع الفلاح الحر أن يغادر أرض

سيده غير أنه لا يحمل معه متاعه الخاص ولا يخرج إلا بثوبه وللصلاح الحر أن يتزوج متى شاء غير أنه يتحتم عليه أن يؤدي رسماً كبيراً إذا كانت العروس من جهة أخرى . على أن تحرير الرقيق أنهى ما للسيد من سلطة تحكمية اقتصادية ، والخلاصة أن السادة لم يهتموا كثيراً في نهاية القرن الثالث عشر بالزراعة فلم يكونوا سوى سادة يعملون على جباية الخراج ففقدت الضبعة بذلك أهميتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

أما أمراء الإقطاع فقد حازوا بطريق مباشر أو غير مباشر دخلاً كبيراً بنمو التجارة في بلادهم وما حدث من تحسن أحوالهم المالية جعلهم يتخذون من الوسائل والإجراءات العديدة ما اعتبرها الأتباع شديدة الخطورة عليهم ، ففي إنجلترا مثلاً برع هنري الثاني ١١٥٤ : ١١٨٩ في توطيد السلطة الملكية وتقويض سلطة البارونات فأكثر من موارد المستمدة من المدن بما فرضه من ضرائب وبما لجأ إليه من بيع الحريات فأجرى بعض الإصلاحات القضائية التي ترتب عليها أن أخذت القضايا طريقها إلى محاكمه وأخذت تبعد عن عفاكم البارونات واستعاض في حكومته المركزية عن الأتباع الإقطاعيين بفئة محترفة من رجال الإدارة . وعهد بإدارة الأقاليم إلى فئة من هذا القبيل وخضع لإشراف قضاة الملك كبار الإقطاعيين الذين مارسوا السلطة السياسية في سائر الجهات . وعلى أي الأحوال ففي القرن الرابع عشر صار للقانون العام الصادر عن الملك السيادة في سائر البلاد فأزال بذلك ما كان للبارونات من قوانين .

أما حكومة الملك المركزية والمحلية فليست إلا مثالاً لما أوجده هنري الثاني من حكومة . وزالت الصفة الإقطاعية عن الجيش الإنجليزي فأصبح مؤلفاً من المأجورين ومن يخدم فيه من النبلاء الفرسان ، والنبلاء الرماة يتقاضون أجورهم من الملك إذ أن خراج الملك كان مستقلاً ومنفصلاً عن الخدمة التقليدية المستمدة من الإقطاعات فتقررت ضريبة عامة على

ذوى الأملاك بصرف النظر عن اختلافهم فيما يحوزون من إقطاعات ، وأقر هذه الضرائب بمثلو الطبقات المختلفة في البرلمان .

وَألف البارونات أحد المجلسين ولم يحتفظ بالتقاليد الإقطاعية سوى طبقة الأعيان من ملاك الأراضي بالأقاليم ومع أن ما جرى من تطور في إنجلترا له مثيل في فرنسا لم يكن بفرنسا من المجالس ما نال من التفوق الدستوري مثلاً نال البرلمان الإنجليزي وظلت الأرستقراطية الإقطاعية في فرنسا تحتفظ بمكانتها حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ على أن هذه الطبقة النبيلة تجردت من سلطتها السياسية ، فنذ عصر فيليب الرابع ١٢٨٥ : ١٣١٤ سيطر على الحكومة فئة من رجال القانون والمحاسبين ينتمون إلى طبقة استطاعت بفضل مساندتها المالية أن تبذل المساعدة للبلوك الذين تلوا فيليب الرابع في الحكم وأن تقضى على ما بقي من الآثار الإقطاعية وزاد في تداعي الأرستقراطية الإقطاعية ما حدث أواخر العصور الوسطى من تغيرات حربية . فالمعروف أنه منذ زمن الكارولنجيين صارت الفروسية هي الأداة الحربية عند الأمراء الأوربيين لأنها تفوق في قوتها وآثارها جيوش المشاة السائدة وقتذاك على أن الأحوال تغيرت في أواخر القرن الثالث عشر فصار في وسع الأمير أن يدفع أجور الجنود وأن يخضعهم تبعاً لذلك لمستوى جديد من النظام فكان من بين الجيوش المأجورة فئات من المشاة أثبتت مهارتها وكفايتها بفضل ما حصلت عليه من تدريب سليم وما تزودت به من أسلحة ، فحدث في معارك عديدة أن استطاعت جموع من حملة الخراب أن تقاوم في بسالة وصلابة هجمات الفرسان وصار بوسع الرماة أن يؤلفوا قوة دفاعية وهجومية بفضل مهارتهم في استخدام القوس ،

فالواضح أن هذه التدريبات والخبرات أوجت باتخاذ نظام جديد في الخطط الحربية لم يكن معروفاً في النظام الإقطاعي . وما لجأ إليه الفارس من

ارتداء الزديات لم يجد نفعاً عند استخدام الأسلحة النارية في القرن الخامس عشر .

فى أواخر القرن الثالث عشر لم تعد القلعة عبارة عن مجرد برج قائم منفرد يحيط به سور بل أضحت بناء مكتملاً به بمجموعه من الأبراج المستديرة تسيطر على كل أجزاء البناء وتنقسم إلى وحدات يسهل الدفاع عن كل وحدة منفصلة عن الأخرى ، هذه القلعة لم يقيس الاستيلاء عليها إلا بفرص حصار طويل ومنع المؤن عن المرابطين بها فلا يستسلمون إلا خوفاً من الهلاك جوعاً .

على أن الخنادق والأسوار لم تعد لها أهمية في القرن الخامس عشر حينما تعرضت لفتايف المدفعية ومنذئذ صارت القلعة مجرد مقر للملك لا معقلاً يحتوى به صاحبه ومن الواضح أن وضع الفارس ومكانته تغير بما جرى من تطور في النظم الحربية إذ فقد ما كان له من تفوق حربى وسياسى . على أن الأرستقراطية الإقطاعية على الرغم من أنها فقدت قوتها الحقيقية ظلت تنبأى بتقاليدها في الفروسية . فطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إزداد الشغف بالمنازلات وبالأوسمة وبكل ما يتعلق بطبقة النبلاء من مظاهر التشرىف وينعكس ذلك فى الآداب العاطفية والروائية السائدة وقتذاك ، فأخذ ملك فرنسا فيليب السادس ينافس ادوارد الثالث ملك انجلترا فى تنظيم المواكب والاحتفالات وإنشاء طوائف من الفرسان وفى إثارة الحروب لأنفه الأسباب على أن الفروسية الحقيقية لم تلبث أن أصبحت جوفاء لا أهمية لها مثلها فى ذلك مثل القلعة والترس والخدعة العسكرية .

ولم تعد الضيقة إلا مجرد ذكرى فى أقاليم الغرب التى ازدادت تقدماً ورقياً ومنذ أن ظهر بالمدن طبقة التجار وازداد الطلب على المؤن والمواد الخام وإذ أدى هذا الطلب إلى زيادة التحسن فى الوسائل التى يجرى بها بيع

المنتجات وتوزيعها زعت الزراعة إلى أن تعتبر عمالة مشمرة فقامت قري جديدة نتيجة بذل شروط مغرية للتزلاء وترتب على نجاح هذه التدابير أن لجأ كثير من الملاك إلى إعادة تنظيم قراهم بتحويل خدمات الفلاحة إلى إيجارات نقدية واختفى بذلك نظام الضياع في أقاليم إنجلترا وفرنسا في القرن السادس عشر ، واختفى أيضاً ما يرتبط بهذا النظام من العبودية ؟

د . أحمد إبراهيم الشعراوي

الاسكندرية — سبتمبر ١٩٧٠ م

رجب ١٣٩٠ هـ

مصادر البحث

العربية :

السيد الباز العريفي :

— دراسات في تاريخ المصور الوسطى :

١ — الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر .

٢ — الإقطاع الحربى عند الصليبيين بمحكمة بيت المقدس في القرنين الثانى عشر والثالث عشر لليلادى .

٣ — الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .
(مقالات مجموعة في مجلد واحد طبع بالقاهرة)

— نحو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثانى عشر م .
(مقال في مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة المجلد ٢٠ العدد الثانى — ديسمبر ٥٨)
— الحضارة والنظم الأوربية في المصور الوسطى القسم الأول — القاهرة ٦٣

سميد عبد الفتاح عاشور :

— أوربا المصور الوسطى — القاهرة ١٩٥٧ م :

فشر (١ . ١ . ٥ ل) :

— تاريخ أوربا المصور الوسطى — ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريفي — جزءان — القاهرة ١٩٥٧ .

كارلس — ديفز (٥ . ٥ و) :

— شارلمان : ترجمة : السيد الباز العريفي — القاهرة ١٩٥٩ .

كوبلاند ، فينو جرادوف :

الإقطاع والمصور الوسطى في غرب أوربا — ترجمة : محمد مصطفى زيادة
الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ .

- ABDY; J.T.**
— Feudalism. Its Rise, Progress and Consequences. London, 1890.
- ADAMS.**
— Feudalism (Ency. Brit.).
- BLEYE ; Pedro Aguado.**
— Manual de Historia de España, T. I, Madrid, 1947.
- CALMETTE;**
— La société Féodale, 2ed. Paris, 1927.
- DICCIONARIO DE HISTORIA DE ESPANA, 2 T. Madrid 1952.**
- DOW; E.W.**
— The Feudal Régime, N.Y. 1902.
- GANSHOF ; F.L.**
— Feudalism, London, 1952.
- MARC BLOCH.**
— Feudal society, London, 1961.
- PAINTER; S.**
— Medieval society, N.Y. 1955.
- PEREZ DE URBEL, Fray Justo.**
— Historia del condado de Castilla, 3 Tomos, Madrid, 1549.
- PIDAL; Ramon Menendez.**
— Historia de España, Trade Introduction por Emilio Garcia Gomez, T. IV and V, Madrid, 1957.
- SEIGNOBOS; C.**
— Le régime féodale en Bourgogne jusqu'en 1360, Paris, 1882.
- STEPHENSON ; C.**
— Medieval Feudalism, N.Y., 1942.
- WERGELAND ; Agnes M.**
— Slavery in Germanic Society During The Middle Ages, Chicago, 1916.

ملحة الماية ١٢, ١٧ من مخرج سند و المية



0365106



0365106